العصـفور وأنا

رواية

العصفور و أنا .. رواية

تأليف/أسامة علي الصادق

.....

الطبعة الأولي يونيو ٢٠١٠

الناشر: المؤلف

موبايل: ٠١٢٢٧٩٧٠٠٣٢

.....

تصميم الغلاف:

كريم آدم

.....

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

oelsadek@gmail.com

العصفور و أنا

(روايـة)

تأليف

أسـامة علـي الصـادق

عيون بلا دموع

فى أسرة متوسطة الحال نشأت الطفلة "ثريا" لأب يعمل قاضيا فى محاكم الاستئناف عُرف عنه الورع والدقة فى تنفيذ القانون مع الرأفة بالضعفاء من الفقراء وأصحاب الحاجة أمام قوة وبطش الأقوياء من أصحاب السلطة والجاه.

بعمارة صغيرة فى شارع سليم الأول بحى الزيتون والذى كان يقطنه فى بداية الخمسينات بعض العائلات من أرباب المهن المثقفة والمتميزة ويدل على هذا طراز المباني الجميلة بحدائقها المنتشرة فى مدخل كلّ منها.

كان ترتيب "ثريا" بين أخوتها الأخير أى أنها كانت آخر العنقود حيث سبقها ثلاثة من الإخوة الذكور وهم بالترتيب مصطفي ثم حمدي وأخيرا شوقي، لقد كان الفاصل بينها وبين شوقي قد تعدى الخمسة عشر عاما حينما جاءت الى الحياة في تلك السن المتأخرة لوالديها ومن أجل هذا بدت السعادة واضحة علي وجه أمها "سميحة" فقد شملتها الفرحة بإنجابها لطفلة لكى تشعر بحنان الأم نحو إبنتها والتى سوف تصبح سرها ومؤنسة وحدتها فى الكبر والهرم.

أما المستشار "فتحي عبد الدايم" فلم تكن لسعادته حدود فقد قفز فرحاً سعيداً مستبشراً وقد قارب على سن الإحالة إلى المعاش وبدا ينظر إلى طفلته والتى بدا واضحا عليها ما تتمتع به من جمال رائع حتى أنه قال لمن حوله إنها تسير على نهج عمتها "صفاء" والتى اشتهرت فى مدينة طوخ

قليوبية بفتنتها الرائعة وتزوجت من أحد رجال السلك الدبلوماسي الذي وصل إلى منصب رفيع كوزير مفوض.

سارت الأمور بالأسرة سيراً طيبا فأغدقوا علي الطفلة الصغيرة من محبتهم وعطفهم خاصة أن شقيقها الأكبر كان على وشك التخرج من الجامعة وبدا لأشقائها الثلاثة أن تلك القطة الأليفة التى نهلوا من السعادة والمتعة بملاعبتها وتقبيلها وحملها لشراء بعض الحلوى لها حينما تخطت مرحلة الرضاع.

أحيل والدها الى التقاعد حين كان عمرها أربعة أعوام وأصبحت مؤنسة وحدته يشاركها لهوها وألعابها بعد أن يُنهي قراءة الجريدة اليومية .. شعر الأب أنه مازال شاباً فلديه طفلة صغيرة تحتاج منه العديد من الأعوام كي يرعاها كما سبق ورعي أشقائها.

أسبغ هذا على أمها شعورا طيباً بصغر السن رغم أن ابنها الأكبر تعدى الثانية والعشرين من عمره .. تأكد لكل أفراد الأسرة بأن ثريا هى صفاء الصغرى وقد أيدت هذا عمتها بعد عودتها من الخارج بعد إنتهاء عمل الزوج ولهذا فقد وقر في نفسها أن الله يحبها بأن تصبح ابنة شقيقها الأكبر قريبة الشبه بها.

بعد مرض لم يدم سوى أيام قليلة انتقل والدها المستشار إلى جوار ربه بين حزن الجميع لتركه هذه الصغيرة والتى لن تستطيع تذكر أي شيء عنه .. أغدق عليها أشقاءها بالحب والعطف وقد قارب شقيقها الأوسط على التخرج في كلية الطب وشقيقها الأصغر لم يتبق أمامه سوى عاما

واحدا على تخرجه أيضا ولكن تلك الصغيرة لم تتعد الفصل الثالث الابتدائي.

بعد مُضى عدة أسابيع علي تخرج مصطفي للشقيق الأكبر تزوج من (راوية) إبنة خالته والتى تسلمت عملها كمدرسة لمادة الكيمياء بإحدى مدارس العباسية، بدا واضحا علي زوجة الشقيق الأكبر أنها راغبة في السيطرة عليه ولم تعد تمنحه الوقت الكافي كي يعود أمه وشقيقته الصغري.

تأثرت لهذا سميحة هانم فهى أم الزوج وخالة الزوجة والتي عادت بها ذكري الأيام السابقة قبل أن يتزوج إبنها وما كانت تقوم به راوية من إظهار لمشاعر الود والعطف علي الصغيرة ثريا ولكن الحال إنقلب بعد الزواج بوقت قصير إذ ظهرت عيوبها وبدأ هذا واضحا علي كل تصرفاتها من الأنانية الواضحة بل ظهر أيضا سوء التصرف والتمرد علي تقاليد العائلة حين كانت تأتي للزيارة وتبدي ضيقها وتأتي بالكثير من سوء الأفعال علاوة علي سلاطة لسانها حين تتحدث مع أفراد الأسرة أو مع زوجها.

أصبح الشقيق الأكبر في وضع لا يحسد عليه فإذا رغب في رعاية وبر أمه وشقيقته تفتعل زوجته المواقف التي تمنعه من زيارتهم فتتظاهر بشعورها بألم والمغص أو تأثرها بحالة الحمل.

بعد أن وضعت وأنجبت كانت تلفت نظره بأن إبنتهم تحتاج إلي وجوده حتي يرعاها كأب، لم يكن مصطفي بالرجل دائم الإنصياع لرغبات زوجته ولكنه في نفس الوقت لم يكن راغبا في إشتعال المشاكل بينهما خاصة أنه تربي علي الخلق الطيب الذي ورثه عن والده فكان دائم الهدوء لا يحدث مشاكل بل يبتعد عنها بقدر الإمكان حيث كان يتمتع بالخلق القويم ويكره

العنف وما يتبع هذا من ضيق.

بعد مرور عدة أعوام تخرج شقيق ثريا الأوسط حمدي من كلية الطب ثم أعقب هذا ارتباطه بالدكتورة ابتهاج طبيبة الأسنان وزميلته بالمستشفى التى يعمل بها، سار حمدي علي نهج شقيقه الأكبر مصطفي من زيارة أمه برفقة زوجته.

شعرت الأم سميحة هانم بوطأة المرض وأن الوهن بدأ يتسلل إلى جسدها عام بعد عام وهى تقاوم وتتحمل مستعينة بالأدوية تارة أو كبت آلامها تارة أخري حتى لا تسبب ألماً لأبنائها وابنتها التى انتهت من دراستها بالمرحلة الإعدادية.

مازالت الأم تقاوم مرضها وتنظر إلى إبنتها الصغيرة التى تخطت السنة الأولى بالمدرسة الثانوية محاولة قدر طاقتها بأن يمد الله فى عمرها سنوات حتي تتمكن إبنتها من الاعتماد على نفسها بدلا من الاحتياج لأخوتها فقد شعرت بأن زوجات أبنائها لا يحملن وداً أو عطفا تجاه ابنتها (ثريا) بل زادت الأمور سوءا بعد زواج إبنها الأصغر (شوقي) من موظفة تجيد عدة لغات وتعمل بالإذاعة المصرية.

كانت زوجة شوقي مثل باقي زوجات أشقاء "ثريا" فلم تكن تحمل تجاه الطفلة ودا وحبا أو عطفا ولم تفكر في دعوتها لقضاء عدة أيام بالمصيف حين تتوجه إليه بصحبة شقيقها شوقي، بل أن كل شقيق من أشقائها يقوم بإصطحاب زوجته وإخوتها تاركا الصغيرة تقوم على خدمة أمها ورعايتها بعد عودتها من المدرسة.

أصبحت ثريا لا تجد وقتا للهو أو التمتع مع صديقاتها ولا تشارك فى الحفلات المدرسية ولا الرحلات أيضا فكل حياتها عمل بالمنزل وإعداد للطعام لقد تحملت الطفلة المسئولية كاملة لرعاية أمها والقيام بشئون المنزل رغم حداثة سنها بل حين تقدم العمر بأمها كانت تقوم على رعايتها رعاية كاملة حيث كانت تصحبها إلى الحمام لقضاء حاجتها أو مساعدتها فى الاستحمام بالإضافة إلي باقي الأعمال من غسل الملابس وكيها.

تعود بعد ذلك لأداء واجبات المنزل المتبقية وأمها تلاحظ كل هذا وهي تشاهدها تعد الطعام ومن حين لآخر تأتي إليها مسرعة طالبة منها النصح فيما تقوم به، بعد أن تنتهي ثريا من طهي الطعام تقدمه لأمها وتظل بجوارها تعمل علي راحتها مقدمة لها يد المساعدة والمعاونة حتي لا يسقط الطعام من يدها أو فمها ودائما ما تهم لنجدتها وقت الحاجة.

مجرد أن تُنهي الأم طعامها تساعدها للتوجه للحمام لغسل يدها وفمها من آثار بقايا الطعام ثم تعود بها ثانية إلي سريرها وتتجه إلي المطبخ لتعد لها فنجاناً من القهوة كي تشعر بالراحة ويفارقها الصداع الذي كان يهاجمها كثيراً.

بعد أن تشعر ثريا بان أمها خلدت إلي نوم هادىء تنهض لإحضار كتبها وكراساتها وتجلس قريبا من سرير أمها تتابع حالتها وتسرع لنجدتها مقدمة لها كل العون، كانت ثريا تذاكر دروسها بعين وبالعين الأخري تراقب أمها ولا تتناول طعامها إلا بعد أن تُنهي واجبات المنزل بما فيه خدمات الأم.

بعد الإنتهاء من واجب المدرسة تسرع إلي المطبخ وقد أعياها الجوع والإرهاق فتتناول الطعام وهي مازالت واقفة علي قدميها ثم تعود إلي حجرة أمها تنام علي السرير الصغير المواجه لها حتي إذا رغبت في طلب العون أو شيء طاريء ليلاً تسرع بتقديمه لها.

في الصباح تنهض ثرياُ مبكرة فتشاهد أمها جالسة علي سريرها وقد أقعدها المرض وتنظر إليها فتنهض لتقدم تحيتها إلي أمها باسمة وتقوم بمساعدتها للتوجه إلي الحمام وتتركها بعض الوقت ثم تعود لترتب الفراش سواء بإستبدال ملاءة بأخري نظيفة أو من إستبدال كيس المخدة ثم تسرع إلي المطبخ لتعد لأمها ولها طعام الإفطار.

تعود ثريا أمها وقد إنتهت مما كانت في حاجه إليه وتساعدها بالعودة إلي سريرها فتشاهد مائدة الطعام الصغيرة مُعدة فترفع يدها لله بالدعاء لابنتها بأن يوفقها الله وينعم عليها بالصحة والعافية.

بعد أن تُنهي أمها طعامها تأتي إليها بفوطه صغيرة مبللة تستخدمها لنظافة يدها وفمها ثم تناولها كوب الشاي وبجوارها زجاجة مياه وتسرع إلي حجرتها ترتدي الزي المدرسي وتحمل حقيبة المدرسة وتأتي لأمها مقبلة يدها مغادرة الشقة بعد أن تحمل معها مفاتيحها كما كانت تحمل معها شنطة صغيرة من القماش بداخل شنطة المدرسة لشراء لوازم المنزل.

كانت تسرع إلي مدرستها فتصل متأخرة بعض الوقت فتنال الكثير من التأنيب والتوبيخ من المُدرسة المسئولة عن الحضور والتـــــأخير وفي بعض

الحالات تتلقي عقابا بالضرب علي يدها بعصا صغيره ورغم هذا كانت متفوقة بالمدرسة ومثار حُب وتقدير أساتذتها ومعلميها مما دفع بالإخصائية الإجتماعية لأن تجلس معها لبحث أسباب التأخير المستمر الشبه يومي، حينما علمت بما تتحمله الصغيرة من أعباء طلبت من مديرة المدرسة السماح لها بالتأخير عشر دقائق مراعاة لحالتها.

بعد نهاية اليوم المدرسي وأثناء العودة إلي المنزل كانت تسلك الطريق المؤدي إلي سوق الحي فتشتري ما يخص المنزل من الخضار والفاكهة ونظرا لأنها صغيرة وليست لها خبرة فكانت تطلب عون السيدات من حولها فكن يقمن بمساعدتها في إختيار الخضار المناسب ويوضحن لها ميزة كل نوع مع إرشادها إلي سلوك الباعة وما يحدث أثناء الميزان بل وصل الأمر إلي تدريبها علي الفصال في ثمن ما تشتريه وبهذا الأسلوب تمرست وتعودت الطفلة علي كل ما يخص شئون المنزل وأصبح لديها خبرة كبيرة.

كل هذا أدي إلى إصابة الام بأمراض أخرى وهى تشاهد صغيرتها على هذا الحال ولا يقوم أحد من أبنائها بمد يد المساعدة لها سوى بالكلمة فقط حين يهم كل واحد منهم بمغادرة منزل أمه بعد إنتهاء الزيارة متسائلاً :

- "عايزة حاجه يا ماما؟"

كانت تنظر إليهم وهم يشاهدون صغيرتهم تحمل لها الطعام وتقوم علي نظافتها وتدليك قدميها وإعطائها الدواء علاوة علي واجب الضيافة لهم، كانت الأعياد والمناسبات تأتي وتعود والصغيرة لا تحتفل بها فكل أعيـــادها

وأيامها عمل ومذاكرة وقد زاد الطين بله بأن شقيقها الأكبر مصطفى إصطحب ابنته (هبـة) ذات العامين لترعاها شقيقته ثريا فى فترة الأجازة الصيفية من المدرسة.

فى إحدى الأمسيات طلبت الأم من جميع أبنائها الحضور إليها .. حضروا جميعا والبعض كان فى حالة من الضجر لأنه على موعد مع صديق .. بنظرات الأم الثابتة الواضحة تحدثت قائلة :

أبنائي "أوصيكم برعاية شقيقتكم ثريا بعد أن أقابل ربى .. هذه وصيتي لكم ومن يرغب بأن أرضى عنه فليقم بهذا الواجب لأنها تحتاج العناية والاهتمام".

علت دعواتهم للأم طالبين من الله أن يطيل عمرها مع وعد قطعوه على أنفسهم بتنفيذ جميع رغباتها وانبري أحدهم ليطمئن أمه بأنهم لا يحتاجون إلى توصية برعاية شقيقتهم ثريا فهى كل شيء فى حياتهم وهى رائحة أبينا وأمنا الذين نقدرهما ونحترمهما

نظرت الأم إليهم غير مقتنعة بما يقولون ورغم هذا أخبرتهم بقولها " لا أصدق ما تقولون وليست لي ثقة كبيرة فيما سوف تفعلونه مع شقيقتكم ولكني لا أملك من الأمر شيئا وسوف أقابل ربى قريباً ولكني دعوت الله بأن ينتقم ممن يغضب ابنتي وأن يشعر بمثل هذا الغضب الذي أشعر به الآن وهو حي يرزق ويشاهد قسوة أبنائه على بعضهم البعض حتى يشعر بحالي وأنا عاجزة على فراش المرض وقد اقترب أجلي."

غادر الأبناء منزل أمهم واجمين من حديثها شديد القسوة خاصة شعورها

بدنو أجلها، سارت الحياة بجميع الأبناء كما هي وقد أخبر كل رجل منهم زوجته بحديث أمه وبدا عليهن الإمتعاض لهذا وتساءلت كل واحدة منهن عما يمكن أن تقوم به بعد وفاة أم زوجها.

لم تمض عدة أيام إلا وقابلت سميحة هانم ربها تاركة فلذة كبدها وحيدة بالدنيا تصارع الحياة بأجنحة ضعيفة لا تقوى على حملها إلى بر الأمان .. انتهي العزاء وجلس الإخوة لتقاسم التركة كما كانوا يتقاسمون الهموم والأحمال، توصلوا الى حل ارتضوه بأن يراعى كل أخ شقيقته لمدة عام ثم الذي يليه وهكذا ثم يكرر هذا الجدول حتى تكبر وتتخرج من الجامعة وتتزوج وبهذا نكون قد نفذنا وصية أمنا ولم نغضبها.

وافق الأشقاء علي هذا وبدأ التنفيذ بالشقيق الأكبر مصطفى ورغم هذا حاولت زوجته المعارضة ولكنه كان شديداً قاسياً عليها حينما شاهد اليتم والبؤس على وجه شقيقته وهى تسير مطأطئة الرأس والدموع تجري في مآقيها ولا تغادرهما.

أقبلت ثريا كسيرة القلب تحمل حقيبة ملابسها ووقفت أمام زوجة أخيها التى كانت تصدر إليها الأوامر والتعليمات والتي لا تنتهي والصغيرة تردد كلمة حاضر يا أبله "راوية".

سارت بها الحياة وكان توقيت ما حدث من وفاة أمـــها ومغادرة شقة العائلة التي نشأت بها والتوجه للإقامة مع شقيقها الأكبر مصطفي وأسرته في نهاية المرحلة الثانوية وكل ما كانت تقوم به فى منزل والدتـــها تقوم به الآن

بمنزل شقيقها وقد كلفتها راوية بتلك الأعمال وبعد أن تنتهي منها وأثناء مذاكرتها عليها ملاعبة وملاطفة ابنتها التى تعدت الأعوام الأربعة.

كانت ثريا تذهب للمدرسة والنوم يهاجمها من كثرة ما تقوم به من أعمال وقد تأثرت حالتها الصحية وشاهد هذا شقيقها حمدي الطبيب وفحصها وتبين له أنها مصابة بفقر دم وأنيميا حادة وإرهاق بدني مرتفع فتوتر لهذا وعاتب شقيقه مصطفي الذي أنب زوجته علي إهمال شقيقته مما دفعها إلى رفع عقيرتها طالبة منه أن يصطحبها ويتركها لدى شقيقه الطبيب والذى لا تعجبه حياتنا.

ارتفعت الأصوات وتبادلوا الأحاديث العنيفة وكل شقيق يرى أن شقيقه الأكبر أولى برعاية شقيقته وأصبحت ثريا تسمع تلك الأخبار ولا تدري أيقبل عليها الغد وهى فى هذا المنزل أم يذهبون بها إلى منزل شقيق آخر، كانت تتوقع في كل يوم أن يصدر لها الأمر بالتوجه للإقامة لدي شقيقها الآخر، لم تشعر بأمان الإقامة ولا براحة البال حين سماعها لأي مناقشة بصوت مرتفع بين شقيقها وزوجته تعتقد أنها السبب في هذا وأنه نتيجة لهذا العراك اللفظي سوف توقع عليها عقوبة بترك المنزل والتوجه لمنزل أحد أشقائها.

بل من المحتمل أن ترفض زوجه شقيقها الآخر ذلك، كانت تطلب من الله أن يتفق أشقائها علي تركها بمنزل العائلة القديم بحي الزيتون وهي قادرة علي مواصلة حياتها والإعتماد علي نفسها، لقد كانت تشعر بأنها في سجن وأن زوجة الأخ تراقب كل تصرف تقوم به وكل قطعة خبز تتناولها، كانت كثيرا ما تنام ليلها والدموع تنساب١٣من عيونها الجميلة علي الوسادة.

في أحد الأيام أقبل مصطفي وأخبر زوجته باحتمال أن يتولى شقيقه حمدي أمر شقيقته، عادت ثريا من المدرسة ولديها التوقع بأنها سوف تحمل حقيبة ملابسها متجهة إلي شقيقها الأصغر حمدي ولكن راوية زوجة شقيقها تخبرها بأن جميع أشقائها رافضون وجودها لديهم .. بكت الفتاة وهى لا تعلم إلى أين تتجه وماذا جنت فى حياتها لتصل إلى هذا المستوى.

في أحد الأيام وأثناء عودتها من المدرسة وقد أقترب موعد الامتحان النهائي لشهادة الثانوية العامة قابلها خالها "رفيق" وصافحها متسائلاً عن أحوالها .. أخبرته بأنها بخير ولكن الخال شاهد حالة البؤس التي عليها كما دقق النظر فيما ترتديه من ملابس خاصة حذائها والذى تمزق وبان عليه القـدم وملابس لمدرسة الرثة البالية.

غضب الخال وتوجه مساء نفس اليوم يحادث أبن شقيقته مصطفي عما أصاب شقيقته الصغرى ولكن مصطفي امتدح سلوك زوجته مع شقيقته وفند الإتهامات وبين له التضحيات التي تقوم بها راوية من أجل ثريا، لم يقتنع الخال بتبرير إبن شقيقته إهماله لها وغادر المنزل حزيناً .

بعد مضي أسبوع علي هذا اللقاء أرسلت الأخصائية الاجتماعية بالمدرسة خطاباً إلى ولى أمر الطالبة ثريا فتحي عبدالدايم بالحضور للقائها مع التنبيه عليه بعدم إعلام شقيقته ثريا .. انزعج الشقيق لهذا متسائلاً ما الغرض من هذا اللقاء؟ أفادته زوجته بأن شقيقته قد ارتكبت عملا مشينا.

دُهش الشقيق بأن تقوم شقيقته باى عمل يدفع الأخصـائية الإجتماعية

لطلبة، بل أن زوجته أسرت فى أذنه (أكيد أختك بتحب واد صايع من بتوع الأيام دى والمدرسة عرفت الحكاية .. مصطفي البت أختك دايره علي حل شعرها .. اسمع كلامي .. أنا مدرسة ومربية وعارفه البنات إللي من نوعية أختك .. صدقني أنا بأكون مكسوفة وهيا بتتكلم مع إخواتي البنات، بيقولوا عليها إنها مستواها الإجتماعي واطي .. بيئة يعنى !!" توتر الشقيق وكاد أن يندفع لضرب زوجته ولكنه تراجع وتماسك في آخر لحظة.

فى اليوم التالي توجه مصطفي إلى المدرسة وإلتقي بالمشرفة الإجتماعية وهناك بجلسة جمعتهما دون حضور أى شخص آخر عرضت عليه المشكلة:

سيدي : أن شقيقتك تسير بين زميلاتها وملابسها رثة بل أن أصابع قدميها ظهرت من الحذاء وهذا لا يليق بفتاة على أعتاب الجامعة وقد تندر عليها البعض من زميلاتها ولهذا أردت أن أجنبها الحزن والألم النفسي وهى تسير مطأطئة الرأس بينهن.

هل حالتكم المادية سيئة لهذه الدرجة؟ وإذا كانت كذلك فيمكنك أن تحضر لنا شهادة "فـقر" تقوم على أثرها إدارة المدرسة بتقديم العون المادي إليها ودعمها ببعض الملابس والأحذية المستخدمة استخداما بسيطا لتجنب هذا الوضع غير المقبول وتلك الملابس مهداة من بعض أولياء الأمور الطالبات الميسورات.

قدم الشقيق شكره لها قاطعا عهداً على نفسه بأن كل تلك الأخطاء سوف يتم إصلاحها مُعربا عن أسفه بأنه لم يلاحظ تلك الأخطـــاء لمغادرته

المنزل مبكراً لعمله، فلم يعد يراها إلا بعد عودته وهى ترتدي ملابس المنزل.

غادر المدرسة حزيناً كسيراً بأن تصل شقيقته وابنة المستشار (فتحي عبدالدايم) إلى هذا الوضع بل تطلب منه إدارة المدرسة شهادة "فقر" حتى يتسنى تقديم يد العون لشقيقته كي تحصل على ملابس مستعملة كأنها ابنة لأحد الفقراء المعدمين رغم انها تحصل على معاش كبير من المرحوم والدها.

غشت دموع الحزن عينيه ولم يعد يرى الطريق مما دفعه إلى التوقف بسيارته على أحد أجناب الطريق خشية ارتكابه لحادث .. مازالت عيونه تدمع تأثرا لحالة اليـتم التي حلت بشقيقته التى لم تبلغ السابعة عشر من عمرها.

عاوده الفكر والشرود .. أن شقيقتى تحصل على معاش من والدي رحمه الله، أين يذهب هذا المعاش؟ لقد سبق وأن شاهدها خالي (رفيق) علي هذا الحال منذ أسبوع والآن إدارة المدرسة، لقد استولت زوجتي على أموال تلك اليتيمة الصغيرة، عاودته حمي البكاء وتذكر الآية القرآنية:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) .. صدق الله العظيم.

بعد عودته إلي منزله شاهد زوجته فى انتظاره وبعيونها أسئلة كثيرة لم يهتم بها ولكنها لحقت به إلى غرفة النوم متسائلة عما حدث من شقيقته "المُلعب" بالمدرسة ثار فى وجهها مُعربا عن ضيقه من تصرفاتها وأن الله أوصى باليتيم، لم يتصور أن يصل سلوكه وسلوك أشقاءه وهو أكبرهم إلي تلك الدرجة، كيف أهملوا شقيقتهم١٦رغم أنها تعيش من مال أبينا.

أثناء جلوسه منفرداً عاودته ذكري ما حاق بسيدنا يوسف على يد إخوته .. اندفع فى بكاءه الصامت وقرر أن يتولى أمر شقيقته بنفسه .. نهض إلى حجرتها وقد فوجئ بأن زوجته تستخدمها كحجرة للكرار (مخزن للأشياء التى ليس لها أهمية) .. فهى حجرة صغيرة ولا يوجد بها سوى شباك صغير يطل على مسقط النور .. استاء من الحجرة .. لم يشاهد دولابا بها رغم أن زوجته سبق وأن أخبرته بأنها أعدت دولابا لشقيقته ولكنه شاهد بعض الصناديق الكرتون وهى دولاب ثريا .. عبث بها وشاهد ملابسها وهاله ما عليها من قدم بل من عدم نظافة، بكى وهو يضع الملابس المتسخة على وجهه كأنه يستنشق رائحة الظلم الذي حاق بصغيرتهم.

لم يشاهد أى ملابس جديدة فكل ملابسها بالية، بعد قليل حضرت شقيقته من المدرسة فشاهدت شقيقها جالسا على سريرها " السفري" المتواضع والذى استعيض بوضع لحاف "بالّ" عليه بديلاً عن المرتبة وقد شعر بأن ضلوعه سوف تُتكسر.

نظرت إليه واجمة متخوفة، نهض ووقف أمامها ودموعه تستعطفها واحتضنها فبكت على صدره وهي التي حُرمت من صدر أمها وأبيها، قبلها وأجلسها بجواره ومازالت دموعه تسبق أي حديث فلم يعد قادراً على الكلام فقد أغلق فمه لإحساسه المرير بأنه أهمل شأن شقيقته؟

سألته: ما باله؟ لم يجب ولكنه طالبها بأن تُبدل ملابسها بملابس الخروج ثم طلب منها بأن تريه حذائها، انحنت وأمسكته بيدها أراد أخذه منـــــها وهى

مترددة وفى النهاية سلمته إليه حيث وضع يده به فإذا بأصابعه تظهر من أحد الأجناب، غادر حجرته مُعلنا لها أنه ينتظرها بالصالة للخروج سويا.

أثناء وجود ثريا بحجرتها وهى تبدل ملابسها سمعت صوت زوجة شقيقها المرتفع تحدثه بطريقة أبعد عن الاحترام بأنه سوف يُفسد خُلق شقيقته بهذا التدليل الذي ليس له أي مبرر .. أجابها بصوت حاد وكلمات قاسية .. هى شقيقتي وليست شقيقتك وإذا كنتِ غير مرتاحة لهذا فأمامك باب الشـــــقة (يفوت جمل) .. صرخت فى وجه وبعد قليل سمعت الفتاة صوتاً مرتفعاً حيث صفقت الزوجة الباب خلفها طالبة منه الطلاق.

***

خرجت شقيقته رتدي ملابس الخروج كما طلب منها، فوجي شقيقها مصطفى بأنها ترتدي ملابس الشتاء فسألها هل أنتِ متعبه أو تشعرين بالبرد؟ أجابته بعيون تائهة وقد بدا له أثر اليتم ماثلاً فى عيونها الكسيرة الدمعة.

. لا يا أبيه .. معنديش غير اللبس ده!! نظر إليها بدهشة فقد وجد أن الملابس ضيقة لا تناسبها وقد حشرت نفسها فيها .. سألها: منذ متى وهذه الملابس لديكِ؟ .. أجابته بنفس عيونها الحزينة.

. من قبل ما ماما تموت بسنة .. ياه .. قالها وهو يضع يده على فمه .. أي أن شقيقته لم تبتاع ملابس منذ الإعدادية وقد نما جسدها وفار في هذا العمر .. سكن قليلاً وانحنى عليها محتضنها مقبلاً إياها.

رافقته إلى أحد محلات وسط المدينة وطلب من إحدى البائعات أن تزود شقيقته بكل الملابس الداخلية والخارجية الغالية الثمن دون التوقف عند مبلغ معين، مضى بعض الوقت وهو يتابعها بسعادة وهي تقلب في الملابس وتشعر بسعادة وتضع تلك الملابس علي جسدها وتشاهد نفسها في المرآة ظل علي هذا الحال حتي إنتهت مما ترغب فيه، تفرس فى أغراضها التي تخيرتها ونظر إليها متسائلاً :

. ثريا أنا مش شايف قمصان نوم؟

. أبله رواية بتديني قمصانها القديمة.

وضعت البائعة يدها على فمها ونظرت إليهما بدهشة .. أشار الشقيق إلى شقيقته بأن تنتقى أربعة قمصان نوم جميلة مرتفعة الثمن .. اتجهت إلى القسم المخصص مع بائعة أخرى، اقتربت منه البائعة الأولى متسائلة بصوت خفيض :

. يا بيه. البنت دي قريبتكم وإلا خدامة عندك؟ لم يجبها بل أجابتها دموعه، أسرعت البائعة بتقديم اعتذارها عن هذا السؤال ولكنه شكرها لأنها وبعض الناس الخيرين قد أناروا له طريق الرشد والهداية .. عادت الصغيرة وقد تبدلت التعاسة والحزن بابتسامة رقيقة ولسان حالها يوجه شكرها إلى الشقيق بل احتضنته وقد قبل رأسها وغادرت البائعة مكانها وجاءت إليهما تقبل رأس الصغيرة والتي نظرت إليها لتخبرها بأن أبيه مصطفى هو أخوها الأكبر وأصبح أباها بعد أن فارق والدها الدنيا منذ عدة أعوام.

مازال مصطفى دامعا، دفع الحساب ونفح البائعة بقشيشا قيما دعت له بالستر لأنه يراعى شقيقته موضحة بأن شقيقها الذي يعمل عاملاً بسيطا يراعيها هى وشقيقتها الصغرى بعد وفاة والدهم وأن لا يحرم أحدا من إخوته.

عادت ثريا إلى منزل شقيقها أسعد حالا لكنها شاهدت الحزن على وجه الشقيق لترك زوجته المنزل، اتصلت تليفونيا بشقيقها شوقي الذي حضر فأخبرته بأن أبله "راوية" تركت المنزل واتجهت إلى منزل والدها.

بعد لقاء الشقيقين والنقاش قرر شوقي بأنه سوف يتولي أمر ثريا علي أن تعيش معه، ارتبكت الفتاة فقد قارب العام الدراسي على الانتهاء طالبة منهم الانتظار لحين الانتهاء من الامتحان لكن شقيقها أقنعها بأن هذا لصالح شقيقها مصطفي حتى لا تزداد أموره تعقيدا.

حملت حقيبتها ورافقت شقيقها إلي موقع سكنه وقد أصبحت تستخدم ثلاث مواصلات ذهاباً ومثلها في العودة من المدرسة. تحملت هذا العبء حتى تنتهي من الامتحان.

لم تلقِ هنا معاملة أفضل من معاملة زوجة شقيقها مصطفي فكل واحدة منهن اعتبرتها خادمة بدون أجر كما جاءت بخير والدها ومن المعاش الكبير.

نجحت ثريا فى الثانوية العامة بفضل الله ودعـــــاء والديها وكفاحها .. وُقبلت أوراقها بالمعهد العالي للموسيقى حيث كانت تجيد العزف علي آلة "النـاي" مع صوتها الجميل أيضا، ثابرت وكانت تتنقل بين منازل أشقائها كل عدة أشهر كما تحملت سخافة٢٠وسوء خلق الزوجات الثلاث والتطاول

عليها فى الحديث خاصة أثناء وجود ضيوف لديهن وخاصة شقيقاتهن .. كانت الصغيرة تتحمل كل هذا ولم تيأس من رحمة الله فهذا هو قدرها وعليها التماسك، لقد فقدت أعز الناس لديها وهما والديها.

كانت ثريا تبذل قصاري جهدها في التحصيل والتدريب علي الآلات الموسيقية بالمعهد كما أنها قررت أن تحاول إستمالة زوجة الشقيق التي تقيم عنده بأن تشعرها بأنها بعد الله فيما يحدث لها من تحصيل وتقدم دراسي، لم تكن تشارك زوجة الشقيق في أحاديثها السيئة عن زوجة أشقائها الآخرين مما يدفعها إلي الضيق وتوجيه الإتهام إليها بأنها تفضلهن عليها.

كانت تحـاول إقناعها بأنهن جميعا أحباب لها وأنها بمثابة الشقيقة الصغري وتنظر إليهن بأنهن شقيقات ذات مستوي رفيع وأنها تسير علي دربهن، كانت تشعر بأنها تتافق تلكم النسوة ولكن ما باليد حيلة فالزوجة حين تغضب منها كانت تدفع بالشقيق لأن ينقلب عليها رأسا علي عقب ويصبح هذا الشقيق في دوامة ما بين زوجته وأطفاله وما بين شقيقته ويضطر إلي تسفيرها إلي شقيق آخر ومجرد الوصول إلي منزله تسمع من زوجة هذا الشقيق أسوأ العبارات بأن ثريا لا تشرف أخوتها وأنها "خميرة عكننة" وأنها سبب بؤس وشقاء أخوتها من التصرفات التي تقوم بها.

لم تكن ثريا تعلم أي شيء عن المعاش التي تستحقه عن والدها فالشقيق يتسلم المعاش الشهري ويسلمه بيد زوجته التي كان يسعدها هذا المبلغ الكبير الذي يزيد عما يتقاضاه زوجها كما أنها أصبحت ثريا خادمة تعمل بالمجان ومربية لأطفالها كل هذا في مقابل٢١السماح لها بالمبيت بالمنزل بالإضافة

إلي إستخدام ملابس زوجة الأخ القديمة البالية.

شعرت تلكم النسوة بأن ثريا لا تكلفهم أي شيء يُذكر، بل كان وجودها يفيدهم، هذا ما سمعته ثريا من حديث علي لسان زوجة أحد أشقائها لصديقتها حين كانت تعتب عليها كيف لها أن تقبل رعاية شقيقة زوجها وهذا سوف يحد من حريتها مع زوجها بداخل الشقة فكانت الإجابة السابقة والتي سمعتها ثريا.

تخرجت ثريا بين فرحة الإخوة والأعمام والأخوال بأن الله تاب عليها من عنت وسوء سلوك الزوجات ومن ضعف الرجال أمام زوجاتهم، انعكس نجاحها علي حالتها النفسية خاصة أنها قررت أن تعيش وتحيا فى شقة الأسرة القديمة بحى الزيتون.

في البداية رفض الأشقاء ثم عادوا وعدلوا من رأيهم تحت ضغط الزوجات لأن المعاش سوف يقتطع وراتبها ضئيل، لقد عادت ثريا الى العُش التي ولدت به وتنسمت عبير أمها وأبيها واشتمت رائحة طعام أمها وسمعت ضحكاتها وتذكرت والدها وهو جالس بجوارها يداعبها ويلاعبها .. شعرت بمتعة كبيرة وأنها غادرت الحبس أو السجن التى ظلت به لمدة خمسة أعوام حيث بشر الله الصابرين ولقد صبرت والحمد لله، جلست في حجرة أبيها وأمها تتذكر تلك الأيام بسعادة.

أنعكس كل هذا على بشرتها الجميلة فعاد إليها رونقها ورقتها وغادرها العبوس الذي شاهدته على وجوه الزوجـــات وتطهر سمعها من سوء الكلمات والتعبيرات التى قيلت أمامها أو من٢٢خلفها.

العصفور مُـغردا طائـــراً

استقرت "ثريا" فى شقة العائلة القديمة وبدأت فى إعدادها للإقامة والحياة بها، سارت بخطى ثابتة، فقامت علي نظافتها وكل أسبوع تقوم بدهان حجرة من حجراتها الأربع ولم تقاطع أشقاءها وهم بالتالي قاموا بزيارتها والاطمئنان على أحوالها ولم تمض أيام قلائل إلا وحضرت ابنة خالتها (سحر) من بلدتها خارج القاهرة والتى عُينت معيدة بكلية التربية جامعة عين شمس، هكذا عثرت على رفيقة في نفس عمرها وقامت الفتاتان بالعمل والكفاح معاً.

نجحت (ثـــريا) فى اختبار الموسيقى التى قامت به فرقة الموسيقى العربية بقيادة الموسيقار عبدالحليم نويره وتم ضمها إلى الفرقة وخضعت لبرنامج تدريب ثم تلي ذلك الإشتراك في البروفات التي تقوم بها الفرقة بإستمرار حتى وصلت إلى العزف مع الفرقة الرئيسية ونال عزفها استحسان الجماهير التى كانت تحضر تلك الحفلات لتستمتع بالفن الأصيل.

فى إحدى هذه الحفلات وبعد إنتهاء العرض تقدم منها شاب وسيم وعرفها بنفسه : المهندس سيف .. امتدح عزفها وأشاد بـه طالبا منها الاستمرار لإمتاع الجمهور وإشجان أذانهم بتلك المقطوعات الرائعة وقد أسعدها هذا بأن يقوم نفر من الجيل الجديد بإبداء إعجابه بما تقوم على عزفه من الحان للأجيال السابقة.

كانت ثريا تعود إلي شقتها فتجد إبنة خالتها في إنتظار عودتها فتعد لها الطعام خلال هذا تكون ثريا قد إنتهت من حمامها فتقبل علي تناول الطعام مع قريبتها سحر، كانت تقص علي سحر كل ما يحدث بالفرقة حيث كانت تشعر بسعادة غامرة بالإضافة إلي ما تبعث به الموسيقي الجميلة في النفس والبدن من إنشراح ومتعة بالإضافة إلي المدح والثناء التي تلقاه من الجمهور المعجب بما تقوم به.

تكرر ما تلقاه من ثناء علي ما تقوم به، في إحدي المرات إلتقي بها سيف ودفعها الفضول الى أن تتساءل عما أعجبه بالفرقة، أخبرها بأنه عازف هاو يقوم بالعزف على آلة "القانون" وقد حصل على دروس عديدة حيث اهتمت به أسرته منذ صغره لموهبته فى العزف وقام بمعاونته أحد مدرسي الموسيقى المتخصصين وأصبح يعزف كهاو مع أصدقاءه.

أصبح لثريا زميل يعشق الموسيقى بل ويعزف الألحان وفى إحدى الأمسيات طلبت منه أن يُسمعها بعض ما يقوم بعزفه، بعد تردد وافق على هذا وحدد لها موعداً فى نادي الجزيرة الرياضي الذي هو عضو به .. حضرت ثريا فى موعدها فشاهدته فى انتظارها ومعه لفيف من شباب النادي من الجنسين.

كانت تخشي المفاجآت لذلك أحضرت آلة الناي معها .. بدأ عزفه بين استحسان السامعين ولكنها كانت أكثر منهم مُتعة بصفتها دارسة وتعلم كيفية بداية المقامات ونهاياتها، أطربها عزفه مما دفعه لأن يطلب منها أن تشاركه العزف، تشجعت وشاركته العزف٢٤مما دفع بالكثيرين من أعضاء النادي

إلي التجمع حولهما وإزداد العدد وتجمهر الأعضاء مصفقين مشجعين لهما.

تكررت اللقاءات بينهما بعد هذا ولكن دون دعوة أصدقاء وانتحيا جانبا من النادي وبدا العزف سجالاً بينهما بين استحسان كلّ للآخر وبعدها كفا عن العزف وتحدثا فى موضوعات عامة تحولت بعد قليل إلى موضوعات خاصة، عرفها بنفسه، أنه نجل أحد الأطباء وقد لقي والداه مصرعهما فى حادث طائرة وهو فى نهاية دراسته بكلية الهندسة واستطاع بمعاونة الأصدقاء الخروج من تلك المحنة القاسية وأن الله خلقنا لكى نموت بعد ساعات أو أيام أو شهور أو أعوام قصير أو طويلة كلّ، لما هو حُدد له من العلى القدير.

عادت إلى شقتها وقد تملكها الأسف والحزن لمأساة سيف لما سبق وقاساه من ألم، حمدت الله على كل شيء وترحمت على والديها ووالدا صديقها سيف وعلى جميع من رحلوا.

فى لقائهما التالي تشجعت وأخبرته بما نالها من القدر ومن فقدان والديها سريعا ومن جبروت الأهل فى صورة زوجات أشقائها .. تألم وحزن لما قاسته .. إقترب منها وهى بالأحرى اقتربت منه وأصبح عزفهما نظرات وإبتسامات وهمسات ونبضات قلبين مفعمين بالحب والرحمة .. عرض عليها الزواج .. توترت قليلاً وسألته أن يتريثا حتي يتعرفان علي بعضهما أكثر قبل اتخاذ اي قرار بالإرتباط.

وافقها الرأي وعلمت منه بأنه ميسور الحال نسبيا ويقيم بشقة والديه الكبيرة بحى مصر الجديدة ودخله من عمله يكفل له الحيـــاة الهانئة الرغدة

توالت اللقاءات بينهما وأشيع فى النادي بأن كلّ من ثريا وسيف سوف يرتبطان قريبا حيث كانت لقاءاتهما تتم فى العلن تحت الشمس.

***

أخبرت ثريا أشقائها بعلاقتها بـ "سيف" وانه راغب في الارتباط بها ويود لقاءهم والتعرف عليهم، شعروا بفرحة كبيرة غامرة حيث خالج بعضهم شعورا بأن زوجاتهم راغبات بوضع أنوفهن بحياة صغيرتهم كما تدخلت إحدى الزوجات طالبة حجز "ثريا" لشقيقها الذي تخرج منذ عدة أعوام ويلاقى مصاعب جمة فى عمله بل كان يفقد كل عمل يتولاه جراء سلوكه وتقارير رؤسائه عنه لكن الأشقاء رفضوا السيطرة على حياة ثريا ومشاعرها وأن لها حرية الاختيار لشريك حياتها ولقد تزوجنا نحن جميعا فى حياة والدينا وتربينا فى كنفهم أما ثريا فقد جاء ميلادها متأخراً وحرمها الله من حنان الأب والأم فلا أقل من أن نقف بجوارها كما كان يبغى والدينا هذا.

تجاهلوا اقتراح الزوجة على مضض والتى يعلمون جميعا أنها أذاقت "ثريا" فنون التعذيب النفسي والبدني والتى كانت لها بمثابة الخادمة دون أجر بالإضافة إلي إنها إستولت على معاشها الشهري دون أن تنفق عليها ولو جزءً يسير حتى بلغ حالها ما بلغ من البؤس والشقاء وهى ساكنةٍ صامتة غير راضية عن الظـلم الذي وقع عليها منذ وفاة أمها ولكنها لا تستطيع رده أو دفعه عنها فهي مازالت ضعيفة مهيضة الجناح.

فى منزل الأسرة بحي الزيتون أقبل الأشقاء الثلاثة إلي لقاء الشـــاب

الذي تقدم لشقيقتهم، تعرفوا عليه وأثنوا علي خلقه وأدبه الجم وتد صورة الله في أحسن صورة، تم الاتفاق على كل ما هو متعارف عليه في مثل تلك الأمور، لم يعترض الشاب علي طلبات وحديث أشقاء ثريا فالرجل عاشق وميسور الحال وهم بالتالي لم يضغطوا عليه بطلبات تثقل من كاهله، تمت قراءة الفاتحة وحدد موعد الزفاف.

كان عرسا رائعا بكل المقاييس وبدلا من أن يجلس العروسان في الكوشة بثيابهما البيضاء ينظر إليهم المدعوون جلسا أيضا ولكن بيد كل واحد منهما آلته الموسيقية وقاما بعزف الألحان المشتركة التي شجت بحلاوة موسيقانا الجميلة وشنفت آذان المستمعين الذين جلسوا منصتين لهذين الشابين الذين أسعدوهم بما انتقوه من أجمل القطع الموسيقية لفناني عصر النهضة الموسيقية في مصر.

زف العروسان الى عشهما الذهبي بين صيحات التهليل والدعاء لهما بطول العمر وموفور الصحة والسعادة وأن يرزقهم الله بالبنين والبنات ليسعدوا بهم ويسعدوا من حولهم خاصة هذا الشاب الرقيق الذي كان وحيداً لا أهل له ولا أقارب فهو مقطوع من شجرة كما علموا حيث كانت عائلة والدية قليلة الإنجاب فوالدته بدون إخوة كذلك والده ولم يحضر حفل زفافهما إلا أهل "ثريا" وأصدقاء العروسان وبعض أعضاء فرقة الموسيقي العربية الذين تسلموا عصا المايسترو من العروسين وقاما بأداء رائع بعزف بعض الألحان الجميلة.

دارت الأيام بهما حيث كان يتوجه سيف كل صباح إلى عمله بينما تتجه ثريا إلى مسرح فرقة الموسيقى العربية للتدرب أما فى أيام الحفلات فكان "سيف" هو العضو الزائد عن الفرقة فهو الزوج السعيد الذي كان يشجيه عزف حبيبته وبدا أن الشاب قد أدمن العزف المنزلي والمسرحي وأصبح لا يستطيع الفكاك من حبيبته هذا الطائر الذي يشبه العصفور بزيها الأبيض الذي يتوج بشعرها الطويل ولمعانه والذى أضفى عليها جمالا رائعا.

فى الصيف تجولا فى أنحاء الجمهورية بين مصايفها المنتشرة، لم يكن تواجدهما بتلك المصايف بغرض السباحة أو مشاهدة المتسكعين على رمال البحر بل كان عزفا حقيقيا اجتمع حولهما رواده وقد شاركتهم العزف أمواج البحر بأصواتها لتشعرهم الطبيعة بمشاركتها لهم فى تلك الحفلات الصغيرة العامة والتى قاما بها لإسعاد من يقضون أوقاتا بتلك المصايف.

عادا إلى عشهما الجميل وبدا أن سلم الحياة يسير بإيقاع سلس مع أنغام حياتهما ولا تعكرها أى هموم أو مشاكل وقد أصبحا من أحسن الشباب خلقا وقد بدا عليهما حالة من إنكار الذات مع الآخرين بتقديم يد المساعدة والمساندة لكل من يحتاج دون طلب أو إلحاح.

نديـــــم

فى الشقة المواجهة للعروسين يقطن ساكن لم يشاهداه أو يشاهدا أسرته وكل ما كان يشعران به هو إضاءة بعض الأنوار أو إطفاء أخرى، تحيروا في من يقطن تلك الشقة، دفعهم حب المعرفة والاستطلاع للبحث عن ساكن تلك الشقة، كيف يبدءان ومن أين؟ خاصة أن البعض يرفض التدخل فى شئونه الشخصية.

جاءتهما فرصة مواتيه، أثناء مغادرتهما الشقة لحضور حفل فرقة الموسيقى العربية شاهدا رجلاً فى العقد الخامس من عمره باديا عليه حسن الهندام وهدوء الحياة والبسمة الوضاءة حينما شاهدهما، تبادلا التحية فى لحظة واحدة وقد أسعدتهما تلك التحية، حادثه (سيف) معرفا بنفسه ورحب به الرجل وحدثته (ثريا) وعرفته بنفسها رحب بها الرجل قائلاً :

أهلاً ابنتي وألف مبروك .. نزلت كلمة ابنتي على قلبها الصغير نزول قطعة ثلج على مكان محتقن من الحرارة فألهمها الهدوء والسكينة، قدم نفسه إليهما، أنا نديم مرعي مهندس إنشاءات. تبادلوا التحية.

بعد عدة خطوات عاد "سيف" متسائلاً إلي أين يتجه الآن؟ لم يغضب الرجل فاخبرهما بأنه يسير فى شوارع المنطقة للتريض ثم يبتاع عشاءه، سألته "ثريا" عن أسرته، صمت الرجل قليلاً وقد تبدل لون وجهه إلي

الإحمرار وطفرت دمعة من عينيه، شعر الشابان بأنهما قد وضعا أصبعهما على جرح غائر مؤلم وحزنا لهذا ولم يتداركا الموقف وهما صغيران علي استيعاب مثل تلك الأمور وحارا كيف يخرجان من هذا الموقف المحرج.

سرعان ما عرض عليه "سيف" رغبته باصطحابه إلى فرقة الموسيقى العربية لسماع عزف لمقطوعاتها النادرة ولبعض الأصوات الشابة التى تعيد ذكرى المطربين العظام لحنا وصوتا. تردد في بداية الأمر وتحت الإلحاح وافق علي صحبتهما.

استقل نديم السيارة معهما وجلس بالمقعد الخلفي ولم يتحدث وتركهما يتحدثان ويتضاحكان وكان يشاركهما الضحك فى بعض الاوقات، وصلا إلي المسرح وافترقت ثريا عنهما وتوجهت إلي الفرقة بينما جلس الرجلان بكراسي متجاورة، بدأت أصوات موسيقي الفرقة تصدح بالعزف لقطع موسيقية دون مصاحبة مطربين وقد تنبه الرجل متسائلاً :

. مش اللي بتعزف معاهم تبقي حرمكم ثريا هانم؟

بنظرة جانبية أعقبها حديث هامس من سيف : فعلا هيا ثريا.

تواصل عزف الموسيقي لحنا وطربا مع بعض المطربين الشبان الجدد مضي حوالي ساعة ونصف ثم توقف العرض للاستراحة، أقبلت عليهما ثريا باشة وبدا عليها الإجهاد مما بذلته من عزف علي آلتها واصطحبتهما لخارج المسرح وجلسوا ثلاثتهم يتناولون مشروباً مثلجا بينما لم يهدأ لسان الجار عن تقديم الشكر والثناء علي عزف الفرقة وخاصة عزف ثريا الذي كان واضحا بأنه حاز رضا المشاهدين للعرض. ٣٠

عاد الزوجان وبرفقتهما جارهم نديم مرعي ووصلا إلى العمارة وأثناء الطريق لم يهدأ الزوجان ولا الجار عن الحديث والفكاهة الراقية فقد كان لمشاهدة عزف وألحان الفرقة وقع طيب عليهم جميعا خاصة نديم الذي أشاد بالفرقة ومن بين أعضاءها العازفة ثريا.

استقلوا المصعد إلى الدور الأخير بالعمارة حيث يسكن العروسان وجارهما فى المساحة الفاصلة بين باب الشـــقتين، تبادلوا التحية برجاء من الشابين بأن يسعدهما جارهما بالزيارة وتناول مشروبا والتحدث فى الأمور العامة، وعدهم نديم وصافحهم ودخل كلّ إلى شقته سعيدا بقضاء وقت ممتع مع الموسيقى والغناء.

أثناء إعداد ثريا للعشاء تذكرت بأن الجار أخبرهما بأنه تعود على التريض وشراء عشاءه ولهذا فهو الآن بدون عشاء، تنبه سيف وأعدت له زوجته عشاءً حمله إلى شقة الجار وبعد أن ضغط على جرس الباب عدة مرات لم يسمع صوتا أو حركة بالشقة وأثناء عودته إلي شقته حاملاً العشاء شاهد نديم مغادرا باب المصعد حاملا لفافة، تبادلا التحية وأخبره سيف بأنه كان يحمل له العشاء، إبتسم له الجار شاكراً مجهودهما وتذكرهما له وهو الذي لا يهتم أحد بأمره منذ عامين.

دهش سيف وشعر بنبرة الحزن تملأ حديث جاره وبتلك الكلمات التي تعبر عما يواجهه هذا الرجل الأنيق قليل الكلام شيق الحديث، افترقا بعد أن أوضح له نديم بأنه ابتاع عشاءه وقدم له ولزوجته الشكر والثناء على هذا التفضل والكرم.

عاد سيف وأخبر ثريا بما شاهده وسمعه من جارهـــما وشعرت بحزن لما آل إليه حاله وعادت بها الذاكرة للماضي سنين وأعواما بعد وفاة أمها والغربة التي كانت تعيشها فى منزل كل شقيق رغم وجود عائلة كل واحد منهم معه ولكن الغربة ليست بعداً جغرافيا ولكنها أيضاً بعداً إنسانيا وعاطفيا وتتمثل في عدم الاهتمام بالآخرين أو عدم مراعاة الشعور الإنساني لأي منهم.

***

بعد أن انتهى نديم من تناول عشاءه جلس كعادته يقرأ احد الكتب التى تعود على قراءتها قبل خلوده للنوم استعداداً لاستقبال يوم جديد أكثر برودة من سابقه .. جلس على أريكة مريحة ماداً ساقيه مستنداً بظهره على المسند الوثير وعاد بذاكرته إلي السهرة التي قضاها مع هذين الزوجين وكيف أنهما أدخلا البهجة إلي قلبه ونسمة الحياة إلى صدره المحترق منذ أعوام.

تذكر ما فعلته به زوجته ونفورها منه واصطحاب أبنته الوحيدة معها وعدم رغبتها فى العيش والحياة معه مما دفعه إلى ترك عمله فى اليونان والعودة ثانية إلى وطنه مصر الحبيبة وكيف أغلق باب قلبه بالضبة والمفتاح علي أحزانه حتى لا يعرف أحد سوء أخلاق زوجته ولهذا ابتعد عن الأهل والأصدقاء.

شعر بميل إلى النوم فسقط الكتاب من بين يديه واستلقي على جانبه فوق الأريكة وراح فى نوم هادئ لم يشعر به منذ عدة أشهر بل منذ أعوام منذ بدأت مشاكله مع زوجته .. نهض بعد أن حصل علي قســـط وافر من النوم واستيقظ لشعوره ببرودة الطقس التي٣٢هاجمته فتوجه وأغلق زجاج بلكونة

الصالة ليقلل تأثير برودة ما بعد منتصف الليل.

جلس الزوجان بعد أن تناولا طعامهما وهما فى دهشة من حال هذا الجار الذي لا يتحدث مع أحد من جيرانه ولا يعلمون عنه أي شيء وقد أصبح مثل صُندوق مُغلق لا يعلم أحد ما بداخله، شعرا بأن اللقاء سوف يدفع بهما إلي التلصص والتدخل فى شئونه الخاصة ولهذا قررا تجاهل كل ما يخصه وعليهما مراعاته من حين لآخر، سارت الحياة بالجارين علي هذا المنوال وإذا حدث لقاء عفوي يقدم كل طرف للآخر التحية ويتركه إلى شأنه الخاص.

قام الزوجان الصغيران بزيارة أشقاء ثريا كلّ في منزله بغرض الود ولم الشمل وإقامة علاقة إجتماعية حُرم منها "سيف" للظروف التي ألمت بأسرته خاصة بعد وفاة والديه فأصبح وحيداً في تلك الحياة المزدحمة بالبشر، لم تهتم كل زوجة شقيق بالزائرين فإما أن تحاول إظهار أنها مشغولة في أمر ما أو إذا جلست فلا تتحدث متجاهلة وجودهما ولا تعلق إلا بإبتسامة صفراء باهتة.

فى احدي الليالي سمع الزوجان صوت أنين قادما من جهة شقة الجار نديم فأسرع سيف باستبدال ملابسه متوجها إلى شقته ضاغطا على جرس الباب وأخيرا شاهد نديم أمامه يتلوي ألما مما أصابه، استفهم منه عن حاله فأشار نديم إلى جانبه الأيسر وانحنى لما يشعر به من ألم، أسرع سيف بإحضار مفتاح سيارته وعاون نديم على غلق باب الشقة واحتفظ بمفتاحها وغادرا العمارة إلي مستشفى٣٣فلسطين الواقع على شارع الثورة قريبا

من سكنهما.

بالمستشفي اكتشف الطبيب بأنه مصاب بنزلة برد أثرت على الكلي والتى دفعته لشعوره بهذا الألم .. حقنه الطبيب بالدواء اللازم وغادر المستشفى بعد نصف ساعة وعاد به سيف إلى شقته وجلس معه يرعي حاله حتى شعر بأنه أحسن حالاً ولم يغادر سيف الشقة إلا بعد أن طلب منه الرجل هذا وشاهده يسير معتدل القوام وبدأت تظهر علي وجهه آثار الشفاء بعد أن لانت ملامح وجهه وغادره الألم.

أصبح سيف يوالي جاره نديم والذي بدا يشعر بحب جهة الزوجين بل شعر بأنه راغبٌ فى مجالستهما ولهذا أتصل بهما عارضا عليهما أن يقوم علي زيارتهم وشعرا بالسعادة لهذا فهما كزوجين لم يقم على زيارتهما أحد منذ زواجهما أي منذ ما يقرب من العام إلا أشقاء ثريا ولمرة واحدة فقط أعقبها اتصالات تليفونية تقلصت لتصبح فى المناسبات عدا هذا فلم يتم أى اتصال معهما كما أن سيف هو الآخر مقطوع من شجرة فقد حُرم من والديه ولا أعمام أو أخوال سوي أبناء عم والده بإحدي قري القليوبية وبعض الأصدقاء وهم يقطنون بالجيزة وشارع الهرم البعيدة عن مصر الجديدة.

توجه الجار لزيارة العروسين واستقبلاه بوجه باش وبسعادة غامرة وبعد

أن تناولوا عصير الفاكهة الطازج جلس ثلاثتهم يتحدثون حديثا طيباً عذباً لم يتطرقوا فيه إلي أي أسرار تخصهم كما طلب منهما الجار بألا يبخلا عليه بالمصاحبة للتمتع بأجواء فرقة٣٤الموسيقى العربية التي أدخلت البهجة

والسرور إلى قلبه الحزين!!

نظرا إليه راغبين فى أن يبوح بمكنون قلبه الحزين ولكن تبين لهما بأن الرجل قد أغلق هذا القلب علي أسراره التى بدا واضحاً أنها مؤلمة لما يكابده من شقاء حين يتطرق الحديث إلى أحزانه ولهذا لم يضغطوا عليه وهو بالتالي لم يبد أي استعداد لأن يتفوه بما يشعر به ويؤلمه.

غادرهما بعد أن قدم إليه الزوجان الشكر علي الهدية القيمة التى أقبل حاملا إياها بمناسبة عيد زواجهما الذى مضى عليه عام.

توالت اللقاءات بمشاهدة حفلات فرقة الموسيقى العربية وشعر نديم بأنه بعد عودته من مشاهدة تلك الحفلات ومن عذوبة اللحن وسماع الأصوات الشابة التي تتغنى بنغمات وروائع المشاهير من كبار الموسيقيين والمطربين والذي عاصرهم شاباً يافعاً وله من الذكريات الكثيرة مع كل أغنية كان يستمع إليها قد أصبح يحَلق فى السماء.

نديم يفتح خزانة قلبه

بعد مُضي عدة أشهر على تلك اللقاءات شعر الزوجان بأنهما لا يستطيعان الإستغناء عن صداقة ولقاءات جارهم نديم لما يمثله لهما من مشاعر أبوية إفتقداها ولم يعثرا عليها بين الأقارب أو المعارف الآخرين إلا بعد تعارفهما علي نديم حيث إستطاع بحديثه الهاديء ونغمة الحزن في كلماته المنبعثة من قلبه وشعر رأسه الأبيض كل هذا أشعرهما بشعور الحب نحو والديهما أو كلاهما، لقد تعلقا به لحُسن استماعه لهما وإنصاته لاندفاعهما بالحديث حيث كانا يتوقفان خجلاً من كثرة ما تحدثا به ولكنه لم يغضب منهما بل كان يشجعهما علي الحديث وهو يشاهد أمامه اندفاع الشباب وحيويته.

مازال فصل الشتاء يعذب الناس بالبرد القارص وخلاله ندرت اللقاءات مع الجار وأصبحا في حيرة خاصة إنهما قد قررا بألا يندفعان لمحاولة معرفة أسراره التي لا يرغب في البوح بها لأي أحد.

استفسرا: أين نديم بيه؟ لم يتمكنا من العثور علي أحد يستطيع أن يرشدهما عن مكانه، فقد رغب الرجل بأن يظل خطاباً مغلقاً أمام الناس وكلٌ يضع علامة استفهام حين ذكر اسمه.

مضت ثلاثة أيام وهما يرقبان شباك شقته المطل على المنور والتي يقع المطبخ والحمام عليه .. مازال الضوء يعمل ولم يشاهدا أي علامة تدل علي وجوده ومازالت الإضاءة علي حالها خلال تلك الفترة. تبادلا طرح الأسئلة:

هل سافر إلى أقرباءه او أنه متوعك؟ اتجه سيف وضغط على جرس الباب دون جدوى .. طرق عدة طرقات متتالية علي باب الشقة دون نتيجة .. هبط إلى مدخل العمارة مستفسرا من الحارس هل شاهد نديم بيه فأفاده أنه منذ عدة أيام لم يشاهده يغادر المصعد سواءً هبوطاً أو صعوداً .

تحير الزوجان وخشيا أن يكون قد أصابه مكروه .. توجه سيف إلى قسم الشرطة وأفصح للضابط هناك بما يخشاه على جاره وبعد أن تفهم الضابط حديثه عاد بصحبته ومعه بعض معاونيه .. تلصصوا من الشباك ووضعوا آذانهم على الباب الخارجي للشقة وهالهم سماع أصوات موسيقي، طرقا الباب عدة مرات دون جدوى.

توقف الضابط متحيراً ماذا هو فاعل وقد أفـاده أحد مساعديه وهو بدرجة "مساعد" وله من الخبرات الكثير باحتمال حدوث شيء سيء للساكن إما إغماء أو وفاة من أنبوبة الغاز ولهذا فيجب عليهم الحصول على إذن من النيابة وفتح باب الشقة فإذا وجد على قيد الحياة أمكن إنقاذه.

عادوا إلى قسم الشرطة وعرض الضابط علي رئيسه ما سمع وشاهد فتشكك رئيسه في هذا الأمر وقرر الاتصال بوكيل النائب العام "وكيل النيابة" المسئول عن القسم الذي أصدر أمرا كتابيا بفتح باب الشقة بالقوة وأرسل للقسم إذنا بذلك محدداً رقم الشقة واسم الساكن بها والسبب فى فتح بابها بالقوة.

عادت القوة مرة ثانية إلى الشقة وقام جنديان بفتح الباب بالقـــــوة ولم

يسمعا صوت الرجل ولكنهما شاهدا الأضواء تغمر الشقة وأصوات الراديو مازالت تعمل .. تجولا بالشقة وهتف أحدهم بعد أن توجه إلى غرفة النوم صائحاً على قائده:

. الحق يا سعادة الباشا

أقبل الضابط ومرافقوه وبرفقتهم "سيف" حيث شاهدوا نديم ملقى على وجهه ودماء متجمدة قريبا من فمه وأنفه، أسرع الضابط بإبلاغ القسم وحضر رجال الشرطة وأعقبها وكيل النائب العـام ومسئول من الداخلية ثم لحق بهم الطبيب الشرعي.

شاهدوا نديم ملقى على وجهه ودماء جافة بجوار الفم والأنف بل الدماء كانت متجمدة مما يدل على أن هذا حدث منذ فترة، حركوا جسده المسجى أرضا ليعدلوا من وضع نومه علي بطنه إلي النوم على ظهره، شاهدوا الوجه وأثار دماء جافه من الفم والأنف والعين جاحظة مفتوحة دون حراك.

كاد سيف أن يسقط أرضا من الخوف والحزن على هذا الإنسان دمث الأخلاق، أيقن الجميع بأن الرجل قد فارق الحياة، اقترب منه الطبيب الشرعي راغباً فى التأكد من وفاته حتى يحصل على عينات منه وحرك ذراعيه ورأسه يمينا ويسارا وكاد أن يعلن بأنه مات ولكن لحُسن الحظ سمع تنفس الرجل واهنا ضعيفا، اتصلوا بسيارة الإسعاف التى حضرت وحملته بعد أن وضع الطبيب محلول "الجلوكوز" بذراعه وعلى أنفه كمامة الأكسوجين.

مازال سيف مرافقاً لهم بأمر من وكيل النائب العـــــام الذي أمر بوضع

الشمع الأحمر على باب الشقة الذي تم كسره، بالمستشفى أسرع الأطباء لرعاية الحالة فى قسم الحوادث وبعد مُضى عدة ساعات نقل إلى إحدى الغرف حيث تعدى المرحلة الحـرجة وأصبح فى قسم الإنعاش .. طلب وكيل النائب العام من سـيف المثول أمامه باكر لأخذ أقواله وسُمح له بمغادرة المستشفى إلى منزله كما أمر بوضع حراسة مستديمة على باب شقة المصاب.

كانت ثريا أثناء ذلك فى حالة يرثى لها ولم تنقطع عن البكاء فقد كانت تشعر نحوه بحب أبوي وطالما كان يلقبها بابنتي ثريا هانم، تساءلت ماذا ألم بهذا الأب العطوف؟ وهل ما حدث له هو عمل إجرامي بغرض السرقة أو القتل، أصابها التوتر والألم وظلت مُسهدة ودموعها تنهمر مدراراً على خديها الرقيقين.

مضى يومان انتهى خلالها وكيل النائب العام من أخذ أقوال المُبلغ "سيف" والذي لم يوجه الاتهام لأي شخص، أخبره وكيل النيابة بأن حالة صديقه الصحية طيبة حيث أبلغته المستشفي بذلك صباح هذا اليوم وأنه من الممكن زيارته ومجالسته والعودة باكر لاصطحابه إلى منزله وأمر بنزع الشمع الأحمر من على الباب وإلغاء الحراسة وحصل على تعهد من "سيف" بالمحافظة على الشقة والقيام بإصلاح الباب الذي تم كسره بمعرفة رجال المباحث حتى عودة المصاب.

أسرع سيف إلي المستشفى ولحقت به "ثريا" بعد أن اتصل بها تليفونيا

.. أقبل سيف على جاره المصاب والذى كان جالساً بسريره أحسن حالاً عما شاهده عليه منذ ثلاثة أيام مضت .. احتضن سيف جاره نديم الذي أثنى على شجاعته وسرعة إنقاذه وأخبره بما حدث له.

تحدث "نديم" بصوته الضعيف الواهن ليخبر صديقيه بما حدث له:

بعد أن انتهيت من مطالعة أحدى الروايات العالمية نهضت من مكان جلوسي مسرعاً للحاق بتناول دواء الضغط وهي عِلة أصبت بها منذ عامين حيث اننى مصاب بضغط منخفض لضربات القلب ولكني شعرت بأن قدمي تعلقت بسجادة الغرفة وهويت أرضاً وسمعت صوتا قويا لارتطامي حاولت النهوض ولكن ضغط الدم كان منخفضا للغاية وشعرت بسرعة ضربات القلب وأيقنت اننى هالك خاصة حينما شاهدت الدماء تنزف من فمي وأنفى .. استلقيت أرضا وحين أفقت طلبت المساعدة ولكن صوتي كان ضعيفاً مع ارتفاع صوت الراديو الذي كان يعمل .. ذهبت فى إغماءة لم أنتبه منها إلا وأنا بالمستشفى وشكرت الله أن أرشد أحدا لرعايتي والأخذ بيدي.

أثناء حديث الرجل لم تنقطع دموع عيون "ثريا" فرجاها نديم الهدوء وقد أرسل الله له بهذين الزوجين لرعايته بعد أن ضنت عليه الحياة وضاقت بالأهل والأحباب.

بدت الدموع فى عينيه ولهذا طلب منه كلٌ من "سيف وثريا" ألا يتحدث ويرهق نفسه وأنه بالغد سوف يعود إلى شقته بصحة جيدة والحمد لله، قدم شكره لهما طالبا منهما العودة إلى شقتهما وأنه في الغد سوف يعود

معتمداً علي نفسه، طلب من سيف أن يعيد إليه مفتاح الشقة ولكن سيف أخبره بأنه وثريا سيرافقانه، سقطت دموعه ثانية وشعر الزوجان بما يكابده هذا الإنسان رقيق المشاعر والأحاسيس.

عاد نديم برفقة كلٌ من "ثريا وسيف" إلي شقته موفور الصحة النفسية والبدنية ودخل إليها وهاله ما عليها من النظافة وحُسن الترتيب وقد تبدل حالها التي كانت عليها شهوراً وأعواما. نظر إليهما وقد انعقد لسانه من فرط السعادة والرعاية التى شملته من هذين الزوجين، شكرهما بلسان أخرس وبإبتسامة فرحة معبرة وعلقت ثريا قائلة :

. أونكل .. ده أقل حاجه نعملها لك ولازم تعرف أن فيه إتنين من أولادك جنبك فى العسر واليسر، أرجو ألا تبخل علينا بهذا الكرم وأن نعمل علي ألا يصيبك أي ضيق سواء من الناس أو من الوحدة المؤلمة التي تشعر بها، أنا وسيف نشعر بك دون أي كلمة فوجهك معبر وقلوبنا تشعر بك.

طلبت منه أن يتناولوا طعام الغذاء سويا فى المساحة الفضاء التى تواجه شقتيهما، لم يمانع فهو راغبٌ فى صحبتهما، بمعاونة "سيف" توجها إلى المنضدة والمقاعد التى سبق وأعدها الزوجان حتى يتمنى لهما قضاء وقت ممتع فى الهواء الطلق القادم من صحراء مصر الجديدة.

جلس الرجلان يتحدثان بحديث عام ليس محدد المواضيع سواء بالتعليق على الأحداث الجارية أو بالتعليق على نتائج مبارايات الدوري العام لكرة القدم المحلية ومقارنتها بالكرة الأجنبية، إستأذن "سيف" صـــديقه وجاره الأب "نديم"

فى تقديم يد المساعدة والمعاونة لزوجته ثريا حيث أشارات إليه بأن يلحق بها بالمطبخ .. عاد الزوجان تباعا يحملان أطباقا من الطعام الشهي والذى سبقت رائحته المثيرة لفتح الشهية أعقبها ظهور الطعام المثير بألوانه وأنواعه المختلفة، انتهى الزوجان من الذهاب والعودة بما حملاه من أطباق وأدوات المائدة.

أحضرت ثريا فوطة صغيرة مبللة بالماء وساعدت "نديم" علي نظافة يده فشكرها الرجل طالبا من الله أن يديم عليها وعلي زوجها الصحة والسعادة والستر من تقلبات الدنيا وظلم الأقارب والخلان، نظرت إليه وقد إنتابها شعور قوى بالفرحة فقد تيقنت من صدق تلك الأدعية وأن الرجل يحمل هما لا يستطيع المرء أن يتحمله بل وقد تنوء به الجبال، إستعدوا لتناول الطعام.
بسم الله الرحمن الرحيم .. اللهم أدمها نعمة وأحفظها من الزوال، أمن الثلاثة على الدعاء.

تداخل الحديث المرح مع الطعام الشهي وقد أصبح الطعام ألذ وأشهي من أي طعام آخر، تبادل الزوجان تقديم الطعام لصديقهما مابين شكر منه وتمنع لكثرة ما يقدمانه له ولكرمهما الزائد.

كل نوع من الطعام يتناوله يثنى على صاحبته مقدما شكره وتقديره لبراعتها فيه مثل براعتها فى العزف مما أضحكهم.

انتهوا من تناول الطعام وأعادت ثريا العناية بالضيف بتقديم الفوطة المبللة ليقوم بنظـافة فمه ويده، تباري الـــــزوجان فى رفع الأدوات من علي

المائدة ثم عادوا وجلسوا يتحدثون ويتبادلون المداعبات وكل فترة زمنيةً يعيد نديم ثناءه على ما قام به سيف وإنقاذه ولولا هذا لقابل ربه ولكن "عمر الشقي بقي". تضاحكوا على هذا التعليق.

لمست الكلمة الأخيرة أوتار قلبه الجريح لتعزف لحن الظلم والألم النفسي والغدر والخيانة، ملأت الدموع عينيه حتى غطت على لونهما الأسمر وأصبحت عيناه سرابا هلاميا لا تعرف هل هذا الرجل مُبصراً أم فقد بصره ، تنهد وعاد بظهره إلي الخلف يتحدث إليهما:

أعزائي: سوف أحدثكما بما كنت غير راغبٌ في الحديث عنه، فهو سر مكنون فى قلبي المدفون بين ضلوع جسدي وأنين نفسي ونواح حزني ليلاً فى سكون الظلام.

بداية حكايتي، بداية تعاستي بدأت منذ ما يقرب من الخمسة عشر عاما وأنا فى مُقتبل العمر والشباب حيث كنت أعمل بأحدي شركات المقاولات العملاقة التي تعمل فى مصر وبعض البلاد العربية والتي لها من الشهرة الواسعة فى مجال الإنشاء والتعمير، كنت أذهب إلى عملي سعيداً مرحاً متفائلا وهناك أقوم به خير قيام بين ثناء الأصدقاء وشكر الرؤساء، أعود مساءً لشقتي هذه حيث كانت تقيم معي والدتي الحبيبة والتى قابلت ربها منذ خمسة أعوام.

كنت أقوم على رعايتها ومحادثتها حيث كانت تنتظر قدومي لنتناول طعامنا سويا والتى تعده (أم إبراهيم) التى تحضـــر كل يوم صباحا وتعود

قبل المساء لرعاية أسرتها والتي هجر الأب عشهم وتركها وحيدة مع خمسة من الأبناء ترعاهم وتلهث على قوت يومهم حيث كنت ألاحظها كل يوم وجسدها يذبل مما تقاسيه ومن مهاجمة الأمراض لها وخاصة آلام العيون .. كانت أم إبراهيم سيدة تقية مخلصة أمينة تجيد عمل المنزل وقد علمت فيما بعد بأنها ابنة لموظف رقيق الحال وتزوجت من (برعي) والذى كان يعمل على أحد ماكينات الطباعة بالمطابع الأميرية بمنطقة إمبابة.

في أحد الأيام جلست مع والدتي نتناول طعامنا وأنا أشاهدها تنظر إليّ مثل نظراتها لي وأنا طفل صغير فى المرحلة الابتدائية، نفس النظرات والسعادة بادية على وجهها الأبيض المكتنز حيث كانت تميل إلى البدانة قليلا وتتحرك بصعوبة وفى بعض الأحيان أعمل علي مساعدتها.

انتهينا من تناول طعامنا فرفعت الأطباق مثل ما فعلتم اليوم حينما قمتم به منذ دقائق مضت، أعددت لها فنجانا من القهوة على ألريحه "ضاحكا" كنت أعتقد فى بادئ الأمر أن القهوة على ألريحه هي قهوة عادية وأقوم بوضع نقاط من زجاجة ألريحه عليها "ضحك الشابين بسعادة"، وجهت لي أمي سؤالاً:

نديم تعرف تعمل قهوة على الريحه؟ أجبتها " دي حاجه سهله .. قمت بعمل القهوة كما كنت أعتقد ومن أول رشفة تركت أمي الفنجان جانبا وهى تضحك من فعلتي وتخبرني بأن القهوة على الريحه تعني قليل من السكر وليست رائحة من التى نستخدمها لتعطير أجسادنا!

فى أحد الأيام طلبت مني أمى الجلوس قريبا منها ونظرت إلى نظرتها المعتادة والتى أعلمها جيداً فهى نظرة فاحصة.

. نديم .. اسمع اللى ح أقولك عليه وتنفذه بدون كلمة.

. حاضر يا ماما

. شهيرة بنت خالتك، عايزاك تتقدم لها وتطلب أيدها من أخوها فتحي!! فاهم؟

. شهيرة؟ شهيرة مين يا ماما .. دي مجوزه!

. إطلقت من جوزها من ست تشهر .، يعنى وفت عدتها وجاهزة

. بس يا ماما شهيرة لسانها طويل!! كمان شكلها مش يفتح النفس

. عيب الكلام ده تقوله على بنت أختي خديجة .. الله يرحمك يا خديجة

. بس يا ماما .. (مقاطعة)

. مش عايزه أسمع الكلمة دي .. إذا كنت بتحب أمك صحيح وعايزنى أرضى عنك إعمل اللي بقولك عليه .. فاهم؟

غادرت المكان التي تجلس به أمي واتجهت إلى غرفتي أقلب الفكرة التي عرضتها علىّ، هاجمتني الأفكار وتداخلت وتشابكت لدرجة اننى نسيت شكل شهيرة ولكن ما أنا متأكد منه إنها لا تمتلك أي مواصفات للجمال تجذب إليها الرجل للزواج منها كما اننى أعلم إنه قد حدثت مشاكل كثيرة بينها وبين زوجها الموظف بالشهر العقاري والجميع أرجع هذا إلي أنه لا ينجب. ماذا أفعل؟ أغضب أمي والله قد أوصي بها خيرا، اى أن الله أمرنا بهذا وأن عناية الأب والأم تأتى فى المرتبة التالية لعبادته ولم يتحدث عن جمال الشكل أو خلافه.

حاضر يا أمي سوف أنفذ ما طلبتي أن أقوم به .. اتجهت إلى المكتبة وأخرجت ألبوم صور العائلة وشاهدت عدة صور لأفرادها ومن بينها صورة شهيرة بل عدة صور، شعرت بأنها ليست جميلة ولا جذابة وخاصة أسنانها البارزة التى تشبه أسنان الجمل، تنهدت ووضعت الصور جانبا عازما على ان أنفذ أمر أمي وأن هذا الزواج سيكون ثوابه مضاعفا لعدم توفر مِسحة جمال من العروس.

هكذا وجدت نفسي أعلن لوالدتي موافقتي على كل ما طلبته منى، أسعدها هذا وقبلتني وقامت بالدعاء لى بأن يرضي الله عني وعن ذريتي، اتصلت بابن أختها فتحي فحضر فى الموعد التى حددته له، أقبل باشا فى وجه خالته ثم ألقت إليه أمي بقنبلة ألحلوي.

. فتحي .. نديم ابني طالب القرب منك فى شهيرة أختك.

تلعثم فتحي ونظر إلىّ متسائلاً:

. أنت شفتها يا نديم؟

. مش مهم يا فتحي المهم أنها بنت خالتي

. ايوه .. بس لازم تشوفها وده حقك الشرعي .. قطعت أمي حديثه قائلة له:

. واد يا فتحي .. خللي شهيرة تيجي معاك يوم الخميس الجاي وتعرفها أنها حتيجي تشوف خالتها إللى مش بتفكر فيها حتى بالتليفون .. وأشارت إليه فأقبل منها مقتربا فأسرت فى أذنه .. خليها تحط شوية أحمر وتلمع نفسها عشـــان الحكاية تتبلع وإلا لازم نجيب شـوية مخلل تفتح النفس، أضحكت

تعليمات أمي فتحـي شقيق شهيرة والذى يشبه أخته إلى حد كبير مع إختفاء الشارب لديها.

حضرت العروس!! وشاهدتها وكدت أن أتراجع وأحنث فى وعدى لأمي ولكنى تماسكت تحت رغبتي فى أن أنال رضاها فالجنة تحت أقدامها.

مازال نديم يروى حكايته المؤلمة للشابين وهما صامتين يسمعان بإمعان وأهمية، قطعت الحديث "ثريا" معلنة لهما بأنها سوف تحضر مشروبا سريعا يساعد على القص والحكى .. بعد قليل حضرت ثريا تتهادى برقتها وفتنتها العالية وقد أبت الموسيقى إلا أن تلتصق بهذه الفاتنة، قدمت المشروب قائلة: . تفضل يا أونكل.

تم الزواج وكلما أقترب يوم الزفاف أشعر بأني متجه إلى حبل عشماوى لكن عشماوى أرحم لأنه يقوم بالإعدام مرة واحدة أما عشماوى الذي أراه فسوف أشاهده أمامي فى كل يوم وكل ساعة بل وكل لحظة ونظراتها المخيفة بعيني وفحيح صوتها بأذني، بعد مُضى شهر على الزواج شعرت بأنه إذا أراد أحد أن يدخل الجنة فلابد أن يختار بين شيئين .. إما أن ينال الشهادة فى ميدان المعركة أو يتزوج سيدة بها مواصفات شهيرة.

إنتدبتنى الشركة للعمل فى أحد المشروعات المشتركة مع شركة فرنسية باليونان .. سافرت شهيرة بصحبتى وأقمنا فى أحد المواقع التى تعمل بها الشركة، كانت زوجتى دائما لا تكف عن إحداث المشاكل مع المعارف والجيران خاصة أنها سـليطة اللسـان ولديها القدرة على نقل الأخبـار

والمعلومات السيئة عن الآخرين وقد بُح صوتي لترتدع عن هذا دون جدوى.

تحملت سوء فعلها وكيف أنال الجنة وأقول بداخلي .. هل لابد قبل دخولي الجنة أن أدخل النار واشوى بها .. الحمد لله : قالتها أمى لي تليفونيا وهى تخبرني بأن زوجتي حامل؟

حامل!! أصابتني الدهشة فهي لم تخبرني بل جاء الخبر من مصر بعد أن أبلغته لشقيقها والذى أسعده بأن شقيقته مثل باقي النساء فى بعض الأمور ومنها الحمل والإنجاب .. أقبلت عليها سعيداً فرحا مقبلاً وجهها دون الاقتراب من أسنانها خوفا من عاهة مستديمة.

. مبروك يا شهيرة.

. مبروك على إيه؟

. إنك حامل

. وفيها إيه ما كل الناس بتحمل وتخلف .. ونظرت إلي وهى تتحدث "حتى الحمير كمان"

عُدت الى الخلف قليلاً لأبتعد عن أسنانها ولسانها الحادين.

. حتى الحمير يا شهيرة .. الله يسامحك.

قررت بيني وبين نفسي ألا أحادثها حتى لا تنجب لي جحشا!! لم تهتم بمقاطعتي لها وظلت علي حالها ومازالت تفتعل المشاكل مع العرب والمصريين وبعد أن أجادت بعض مفردات اللغة اليونانية ألقت بدلوها بين أهل اليونان الذين لا يعرفون مثل تلك الأقوال والأفعال وأحدثت معهم مشاكل كثيرة.

مضى على زواجي منها خمسة أعوام وأصبح لي طفلة عمرها أربعة أعوام وهي تشبه أمي فهى جميلة وحمدت الله أن أنتج الجميز تفاحاً، منذ ثلاثة أعوام جائتنى تحدثني بخجل وقد دُهشت واعتقدت أنها مريضه .. استمعت إليها وهى تخبرني بالخبر الصاعق.

. نديم .. عايزه أطلق.

اعتقدت بأنها تتدلل مثل بعض النساء فيضطر الرجل أن يزيد من جرعة الحب والمشاعر مع زوجته ولكنها لم تنتظر أن أسألها عن السبب في ذلك حيث أكملت حديثها ..

. نديم أنا بأحب واحد تاني!!

فى البداية اعتقدت اننى أستمع لأحدث نكته ولكن الحقيقة أنها لم تكن نكته بل كانت حقيقة حيث انجذبت إلى رجل يونانى يهوى الرسم وقد قام برسم لوحة لها وفازت بجائزة فأراد أن يعاقب نفسه بالزواج منها.

حاولت إقناعها بأن هذا لا يجوز والرجل مسيحي وتعاليم ديننا تمنع هذا دون جدوى حيث أشاحت بيدها فى وجهي .. "بأقولك طلقني وغور من وشى يا غراب البين"

دق سيف بيده على المائدة بينما ثريا هاجمتها حالة من الضحك لم تستطع أن توقفها ثم توجهت باعتذارها للصديق والأب نديم .. آسفة يا أونكل لكن كل تلك الوسامة وتقول عليك كده .. طيب لو هيا كانت جميلة كانت قالت عليك إيه؟ ولو أنت مش وسيم إلى هذه الدرجة كانت قالت إيه؟ الحقيقة شر البلية ما يضحك.

خلال تلك السنوات قابلت أمى ربها راضية عنى وأنا أودعها باكيا على حالي وما ألم بى من هذا الزواج السيئ والتى أضرتني به أكثر مما نفعتني نفذت كل ما طلبته منى زوجتي وطلقتها وتزوجت الرجل اليوناني فوراً دون عدة ولا غيره، طلبت منها ترك ابنتي "نورهان" ولكنها رفضت وكدت أجن بل أنها جاءت إلى مصر ونشرت عني فضائح وأكاذيب بين مجتمع الأسرة والأهل فى مركزنا بالبحيرة.

أصبحت العيون تنظر إلىّ فهى زوجتي وعاشرتني وتقص عليهم ما كان يحدث بينا وانني رجل غير طبيعي ولهذا رفضت معاشرتي وطلبت الطلاق وقد سألها أبن شقيقها فتحي طالما هو سيء ورغبت فى الطلاق فلماذا الزواج من شخص أجنبي وغريب عنا ومخالف لملة الإسلام، هنا أطلقت عليه وابلاً من قذائف لسانها البذيء مما دفع بالموجودين لمغادرة المكان.

هذا ما أصابني يا أبنائي وُعدت منذ عامين وأنا أمكث فى شقتى غير راغب فى التعرف على أحد، فقد شعرت بضئاله نفسي وعدم تجاوب المعارف والأهل معي، جلست فى منزلي هذا وأنا أعيش على الفتات الذى يأتى إليّ من أرضى الزراعية بمركز إيتاي البارود، فلقد استولى الأقرباء على أرضى الزراعية بعقود إيجار وهمية مع والدي وأشاهدهم يحصدون كل خير منها ويرمون إليّ بالفتات المتبقي لي وأنا أسير على درب الحياة أنتظر يوم لقاء ربى حيث لم يُعد للحياة طعم ولكن بعد لقاءكما والتعرف عليكما شعرت أن أمامى عصفورين جميلين بعد أن تركت الحـــدأة العش بعد أن أصابتني فى

كرامتي وحرمتني من رؤية إبنتى الصغيرة التى أبكيها كل يوم وقد حُرمت منها لأكثر من عامين وقد قاربت الآن الخامسة عشر.

هل يتخيل أي شخص بأن أبا لا يعلم شكل وصورة إبنته، لم أرها منذ فترة وليس لدي صورتها، لم أسمع صوتها بالتليفون، لقد أبت عليّ زوجتي السابقة بألا أشعر بطعم وحنان الأب، حاولت التفاهم معها عن طريق شقيقها فتحي ولكنها صبت جام غضبها عليّ وعليه وأسمعته أسوأ عبارات في حقه وحق أسرته.

لقد صرخ فيها شقيقها أثناء المحادثة التليفونية معنفا نفسه بأنه هو المتسبب فيما سمعه وأهان كرامته وكبرياءه لأنه تحدث معها وأغلق سماعة التليفون في وجهها ساخطا عليها وطلب مني الهدوء والصبر وأن إستمرار الحال من المحال.

الرجل الحزين

بعد أن انتهي نديم من فتح خزانة أسراره لصديقيه وبعد أن كست علامات الحزن وجهه إستعاد رشده وقدم شكره وإعتذاره لهما عما جاء بحديثه الذي تسبب في ضيقهما، نهض متوجها إلى شقته وحينها طالبه "سيف" بأن يعطيه نسخة من مفتاح الشقة حتى لا يتكرر ما سبق وحدث له، إبتسم له شاكراً حُسن صنيعه وأشار إليه فرافقه وبداخل الشقة ناول الجار جاره نسخة من مفتاح الباب حتى يسارعوا إلي مساعدته لو حدث له أي مكروه.

عاد الزوجان إلى شقتهما وهما فى دهشة لما ألم بهذا الرجل الوديع وشعرت ثريا برغبة قوية فى البكاء حيث كانت تحاول كبت بكاءها أمامه تركها سيف تبكى علي الحظ العاثر الذي أصاب هذا الرجل ومازال يفكر فى كيفية مد يد المساعدة له ونظر إلى ثريا وسألها العون بعد أن أنهت بكاءها.

لم تستطع أن تقدم له النصح والمشورة ولكنها ركزت كلامها معه بأنه من الواجب عليهما متابعته وعدم تركه بمفرده تهاجمه الأحزان وخيانة الزوجة ماثلة أمامه وبُعد ابنته عنه التي أطاحت بعقله وإتزانه ولم يعد يشعر بحلاوة الحياة وبهجتها، لم يهدأ للزوجين بال وظلا يعيدان بعض مقاطع حديثه ويعلقان عليها وتبادلا الأسئلة :

هل أخطأ نديم أم أصاب حين رضخ لرغبة أمه في الإقتران بإبنة خالته ولماذا لم يصغي لنصح رسول الله بالإقتران بالزوجة الصالحة ورغم أن نديم كان يعلم علم اليقين بما إلتصق بها من سوء الخلق والعشرة وما عاناه

زوجها السابق، لقد كان راغباً في ألا يغضب أمه وراغبا في رضاها عنه.

***

إختلي نديم بنفسه وإجتاحه الأسي مستعيدا ذكري زواجه الفاشل من إبنة خالته وقد أضناه الشوق إلي إبنته نورهان التي لم يراها منذ أعوام، غرق في أحزانه فإنخرط في بكاء طويل حتي هدأ، جمع شتات نفسه وإستجمع إرادته فنهض إلي الحمام وترك الماء ينساب علي جسده ليزيل عنه بعض مشاعر الضيق والألم، بعدها غادره متوجها إلي الصالة فجلس علي كرسي فوتيه مريح وأدار جهاز الراديو وإنسابت منه الموسيقي الهادئة ويمضي الوقت شعر بالراحة وإستعاد زمام نفسه.

استمرت حياة الجارين على هذا المنوال وأصبح الزوجين قريبين من نديم سواء بتناول الطعام سويا أو بالتوجه لمشاهدة عروض فرقة الموسيقى العربية.

مضى عامين على زواج ثريا وسيف وانقطعت الصلة بأشقائها منذ عدة شهور بما فيها الاتصال التليفوني، ولم يبدو فى الأفق أي بوادر حمل ولهذا اتجها إلي أحد الأطباء وبعد الفحص الذي قام به أخبرهما بأنه لا توجد أي موانع لعدم الإنجاب ولكنها فترة زمنية وسيتم الحمل وعلي سيف أن يتناول دواءً ليساعده بعد فترة ليست بالقصيرة علي الإخصاب وقرره له في روشتة الكشف.

عادا إلى شقتهما أحسن حالاً وقد اطمأن الزوجان على أنهما بخير وبعد الإنتهاء من إستخدام الدواء الذي٥٣قرره الطبيب سوف تتحسن الأحوال

وبالتالي لا داعي للتوتر أو الإسعجال.

تطورت العلاقة بين الأصدقاء الثلاثة إلى الخروج والتنزه ومشاهدة محلات مصر الجديدة وشعر كلّ من ثريا وسيف بأن صداقة نديم أدخلت الدفء الأسري إلي قلبيهما وأصبح بُعده عنهما لعدة أيام لانشغاله بأرضه بالبحيرة مدعاة للأرق والضيق الذي كان ينتابهما وحين يعود إلي شقته تعود بالتالي البسمة إليهما مرة أخري.

بمضي الوقت شعر نديم بأنه قد أصبحت لديه عائلة تهتم بأمره وتجالسه وتتحدث إليه وشعر أيضا بأن سنين الصمت البائسة التى سيطرت علي حياته في السابق قد هجرته وولي زمانها فقلل هذا من توتره وإن كان شوقه لإبنته مازال كامنا بقلبه ومع هذا كان الرجل كريم الخصال فى كل لقاء مع ثريا وزوجها وقد إعتاد علي تقديم بعض الهدايا لهما فى المناسبات كعيد زواجهما أو بتقديم بعضا من منتجات أرضه الزراعية حين يعود من زيارته المعتادة للبحيرة.

وُفق نديم فى الحصول على وظيفة مرموقة بشركة مصر الجديدة للإسكان والتعمير وبمرتب كبير وسيارة تقوم بإحضاره يوميا وتعيده بالمساء انعكس هذا علي حالته النفسية مما ساعده علي ترك أحزان الماضي التى إستطاعت أن تلف خيوط البؤس على مشاعره وأحاسيسه مما جعله يشعر خلال ذلك بأنه لا سبيل للنجاة منها.

بفضل الله وعون صديقيه الشابين تحركت أحاسيسه ومشاعره وتبدل إلى الأحسن ثم أكمل الله عليه نعمته٥٤بالعمل المناسب والذى أشعره بقيمته،

أثناء جلوسهم مساءً يتحدثون ويتسامرون فاجأته ثريا بسؤال لم يكن هو أو سيف يتوقعانه، لماذا لا تتزوج؟

ظل صامتاً ولم يستطع فتح فاه من شدة المفاجأة فشاهد أثر صمته عليهما وكان الحزن والوجوم باديا عليه، تنبه بضحكة مصطنعة موجها سؤالاً إليها:

. تعرفي عروسة مناسبة ليا؟

أشارات برأسها بما يعني أنها لا تعرف أحداً بالذات واستكملت حديثها بأن زواجه سيدخل الدفء والبهجة إلى قلبه ونصبح عائلتين كبيرتين ونحن نسكن بالدور الأخير فلا نشاهد الجيران يقطعون علينا حر الحديث أو جلسة الصفاء التى نجلسها سويا مع سماع بعض العزف والذي يشاركني فيه سيف.

استطاع سيف بلباقة أن يغير مجرى الحديث حيث شعر بأن نديم وثريا أصابهما الحرج .. نهض فأحضر آلة القانون وتبعته ثريا فأسرعت بإحضار آلة الناي وتبادل الاثنان العزف الرائع الذي دفع بصديقهم نديم إلي الدندنة والطرب والتمايل يمينا ويسارا مادحا طريقة العزفُ معلقاً: "آه عليكم وعلي عزفكم الرائع".

توالت اللقاءات بين الزوجين الصغيرين وصديقهما نديم الذي أصبح يشعر بأنه من غير الممكن أن يستغنى عن صداقة الزوجين حيث أحاطاه بالبهجة والسرور التي أسعدت قلبه الحزين وقد بدأت تفارقه تلك الأحزان وتبدل الحزن بالفرح والدموع بالابتسامات والبهجة التي طغت عليه ولاحظا عليه ذلك فأصبح أكثر حيوية٥٥وحواره معهما وارتفع صوته وبادلهما

المداعبات الراقية بل تشجعوا على الخروج لتلبية دعوته لتناول الطعام سويا بأحد المحلات الراقية حينما تسلم أول راتب له من عمله وتوجهوا بعدها إلى احد الكازينوهات المطلة على النيل وقضوا وقتاً ممتعاً على ضفافه حتى يحين موعد عرض الفرقة الموسيقية.

بمسرح الفرقة وبين جمهور المشاهدين والذي بدا واضحا عليهم حُسن التذوق والاستماع نهلوا جميعا من الطرب الأصيل الذي شنف آذانهم عادوا بعدها إلى المنزل والسعادة تحيط بهم بعد هذا الجو الرائع الذي تلمسه كل واحدا منهم.

سارت الحياة هنيه وقد أرضي كل واحد منهم صاحبه فشملتهم السكينة والهدوء وشعر ثلاثتهم بأن الله قد عوض كل واحد منهم عما فقده من الأحباب.

شعر سيف بحنان الأب نحو نديم فى صورته ولون شعر رأسه الذي خططه المشيب كما كان لحديثه الهاديء وضحكاته ونصائحه المغلفة بالذوق مع مراعاة مشاعره الأثر الطيب لهذا الشعور الأبوي نحو نديم.

أما عن ثريا فقد شعرت بحب سيف لها الحامي وهذا الحب يشعرها دائما بالسعادة خاصة إلتقاء الذوق والهواية في عزف الموسـيقي أما من جهة نديم فقد شعرت بحب وحنان الأب الراحل وذلك من تصرفات نديم في هيئته وطيبة قلبه حيث لا يندفع بالحديث مثلها، كان هدوء وصمته لبعض الوقت يذكرها بوالدها التي لم تتذكر منه إلا القليل والتي فقدته وهى صغيرة كما عوضها هذا الحنان والرقة في٥٦المشاعر عن عزوف الأشقاء عن

زيارتها أو الاتصال بها تليفونيا.

أما نديم فقد حصد كل خير ومنفعة دون قصد فبث في ثريا حبه وحنانه فاستعاض عن هذا ولو مؤقتا حبه لإبنته والذي لا يمكن إشباعه من أي أحد، كما شعر نحو سيف بأنه شاب يتميز بالطيبة وأنه بمثابة الأخ الصغير أو الإبن الذي لم ينجبه وكان يتمني هذا، لم يعد قادراً علي البعد عن الإثنان وأصبحا هما كل شيء في حياته بعد عودته من عمله وفي العطلات.

كان نديم دائم التفكير في مستقبل إبنته، هل يطمئن عليها وهي تعيش مع هذا السكير زوج أمها وهل أمها قادرة على حمايتها وهى التى تعيش فى بلدة الزوج مع اختلاف العقائد والعادات فأنا كمسلم أعلم ماهو الحرام فأتجنبه وما هو الحلال فألتزم به، توتر قليلا ولكنه استعاد زمام أموره بأن الله لا ينسى عباده فقد فتح هذين الزوجين عليه أبواب الأمل والحياة بعد أن أغلقتها تصرفات أم ابنته الرعناء.

غالبه النعاس فاتجه إلى سريره يدعو الله أن يديم عليه نعمته فضلا وإحسانا وأن يكرم هذين الزوجين بالإنجاب لتكتمل سعادتهما وهو يشاهدهما كأنهما عصفورين جميلين يعزفـــان مقطوعة الحياة الرائعة بالحب والاخلاص

في مساء ذلك اليوم جلس نديم بالمنطقة الفراغ أمام الشقتين والتي استطاع الزوجان بذكائهما أن تتحول إلى مكان خاص للجلوس به فى أوقات فراغهم وقد زودت بالمقاعد الوثيرة والمائدة الدائرية التي يغطيها الزجاج المزركش.

اليوم التالي لم يتجه نديم إلي عمله فقد حصل على أجازة لشعوره بالإرهاق، استيقظ من نومه متأخراً بعض الوقت وأنهي نظافته الشخصية التى يقوم بها يوميا فقد أصبح كثير الاعتناء بنفسه بعد انجذابه لجاريه ولم يعد يترك لحيته دون حلاقة بل إستبدل ملابسه بأخرى أكثر حيوية.

غادر شقته واتجه لأحد المطاعم فحصل على وجبة إفطار بعدها توجه إلى المقهي المجاور فتناول فنجانا من البن المحوج وشاهد بائع الجرائد فابتاع الجريدة وجلس يُمعن النظر فى عناوين الأخبار الرئيسية، ترك الجريدة جانبا يشاهد حركة المارة ذهابا وعودة، شعر بسعادة وهو يسمع نداء نادل القهوة بصوت مرتفع برغبة كل زبون فيما يريده مع تنغيمة بصوته وإضافة اسم صاحب الطلب إلي ما يرغبه "عندك شيشة تفاح وقهوة ع الريحة عشان الأستاذ محمود ..... " وهكذا.

بعد قليل غادر المقهي وسار حوالي مائة متر حتى وصل باب العمارة التي يقطن بها فاستقل المصعد حتى نهايته فغادره متجها إلي شقته ولكنه شعر بريح منعشة تملأ منطقة السطح فجلس علي الكراسي المُعدة بين الشقتين يكمل قراءة الجريدة.

بعد قليل سمع صوت فتح باب شقة جاره سيف وظهرت من خلاله جارته ثريا راغبة فى الجلوس بمكانها المفضل فشاهدت نديما جالساً فعلت البسمة الجميلة ثغرها وابتسمت ابتسامتها الصافية فانعكس هذا على وجهها الأبيض ذو الملامح الرقيقة المتناسقة كما حركت الرياح خصلات شعرها الناعم فأقبلت ناحيته ولكن صوتها وصل٥٨إليه قبل ان تصل هى:

. أونكل نديم!! صباح الخير عليك، خير؟ أجازة النهاردة ؟ نهض مبتسماً.

. كسلت النهاردة وقلت يوم راحة مطلوب بعد الكام أسبوع اللي أرهقوني، كلمت المدير العام ووافق انى أستريح النهاردة وممكن كام يوم لو كنت فى احتياج.

. لا أنت كويس خالص .. ياه لو أعرف إنك مريح النهاردة كنت خليت "سيف" أخد أجازة من الشغل وكنا قضينا اليوم مع بعض.

. الأيام جاية .. ح اسيبك على راحتك وأروح أصلى الضهر لأني سمعت الأذان من شويه وانا فى الشارع.

نهضت وأشاهدها تستعد للجلوس، لاحظت أنها تترنح وكادت ان تسقط فنهضت لمساعدتها وهى تصرخ .. أونكل العمارة ح تقع .. اضطربت وشعرت أن العمارة تهتز وسمعت صرخات الناس بل شاهدت العمارة التى أمامى تهتز بعنف .. لم اعتقد أن هذا إنهيـــار للعمارة، فجميع المباني المجاورة تهتز وهذا يعني بأنه زلزال قوى.

أعادت ثريا صراخها وهى ممسكة فى تلابيب البدلة وارتمت على صدرى محاولة الاحتماء بى.

هدهدت على كتفيها محاولاً طمأنتها ولكن الخوف والجزع أصابها لما نتج عن تلك الهزة والتى سكنت بعد أن هدأت وخمدت قواه وأنفاسه.

أفاقت ثريا من حالة الصرع المؤقت التـي انتابتها وأجلستها بهدوء رغم أنها كانت راغبة فى ترك العمارة حتى لا تسقط بنا خاصة أنها شاهدت السكان بالعمارة المقابلة يسرعون٥٩الخطى بمغادرتها، حاولت إقناعها بأن

تستكين وتظل ولكنها لم تقتنع فقدمت لها يد المساعدة وهبطنا سلم العمارة حيث قُطع التيار الكهربي ولم يعد المصعد يعمل، فى الشارع أصابها الذهول مما شاهدته والناس تصرخ والبعض يصيح ويعطى بيانات ومعلومات من رأسه الفارغة .. أحدهم :

. إسرائيل ضربت قنبلة ذرية على مصر!! شخص آخر.

. لا ياعم .. أمريكا السبب بعد ما دمرت الجيش العراقي وطردوه من الكويت قالوا نرد الجميل لمصر بعد ما جيشها حرر الكويت فرموا كام قنبلة .

. يا عالم .. دي زلزلة ضربت البلد . استرها يارب .. أقبل البعض واحدهم يعطى بتصريح.

. بيقولوا أن خمسمية بيت فى باب الشعرية معدش لهم وجود باللى فيهم.

(جموع المحتشدين) يا ساتر يارب.

نظرت إليها فشاهدت دموعها كشلال مندفع دون توقف، ربت على كتفها ممسكاً بيدها طالبا منها العودة إلى الشقة ومازالت متخوفة فأشرت إليها بأن جميع المباني بخير وهذا زلزال وأنا مهندس وأعلم ما اقول ولا تخشي أي شيء.

عُدنا إلى العمارة وشاهدنا إضاءة أنوار المصعد فاتجهنا إليه وصعدنا عائدين إلى مكان جلوسنا المفضل، توجهت إلى شقتى وأحضرت راديو صغير الحجم وأدرت مفتاحه وسمعت الإذاعة تتحدث عن غضبة الطبيعة فى صورة زلزال قوى ضرب مصر والبحر الأبيض بقوة ٥,٥ بمقياس "ريختر: لقياس الزلازل وأن الجهات٦٠المختصة تقوم بحصر الخسائر فى

المنشئات والبشر.

تركتنى ثريا وأسرعت إلى التليفون تحادث "سيف" لتطمئن عليه، عادت بعد فترة حزينة لأنها لم تستطع تحقيق الاتصال فجميع خطوط التليفون مشغولة.

هدأت من توترها طالبا منها الجلوس والاستكانة وما علينا سوى الدعاء له بأن يزيل الله آثار هذا الحادث عن الجميع ثم إستأذنت ناهضا لكنها صاحت بى.

. أونكل .. أرجوك مش تسيبني .. أنا خايفه .. رجعت لحالتي بعد ماما ماتت وفضلت أروح كل بيت شوية وما فيش استقرار في حياتي.

. حاضر يا بنتي، ضمت يديها ووضعتهما بين صدرها وأسفل رأسها.

. الله. كلمة بنتي بتريحني.

. أروح أحاول أكلم سيف يمكن يكون الخطوط أنصلح حالها.

. ايوه ربنا يخليك.

عُدت بعد قليل مشيراً بيدى بأننى لم انجح بالاتصال بسيف، مازالت أصداء ما حدث تضرب بيدها على جموع الناس في الشارع ووصلت إلينا الأصوات المرتفعة مكان جلوسنا، واستمرت الإذاعة فى نقل الأخبار تباعا إلى الجماهير وقد أدلى خبراء الزلازل بدلوهم معلقين موجهين مرشدين الجماهير بتوخي الحذر من عودة الهزة الأرضية مرة ثانية والخوف من التوابع التي دائما ما تتبع أي هزة أرضية.

نظرت إليّ بعيون دامعة وكأن٦١الدموع غير راغبة فى مفارقة عيونها

الجميلة ولسان حالها يتساءل:

ما هو القادم إليكِ يا ثريا؟ لم تجد إجابة شافية ترضيها وتقنعها وهاجمتها الأفكار السوداء التى عصفت بسعادتها فنهضت مغادرة المكان حاملة دموعها معها.

سـيف

بعد أن عادت ثريا إلي شقتها سمعت رنين جرس التليفون فأسرعت إليه مضطربة:

. آلو .. ايوه أنا .. بتقول إيه؟ فين؟ مستشفى إيه؟ ايوه المنيرة العام!!أنهت المكالمة ووضعت سماعة التليفون وفتحت باب شقتها فشاهدت نديم مازال جالساً بوضعه السابق، نظرت إليه فالتفت إليها فشاهد الدموع غزيرة فيهما. نهض واقفا متجها إليها متسائلاً :

. مالك؟ لسه دموعك نازلة؟ حاولت الكلام ولكن لسانها لم ينطق بكلمة وكل ما فعلته أن اندفعت إلى صدره باكية وهو فى دهشة من هذا، ألقت عليه خبراً لم يكن يتوقعه.

. سيف متعور ونقلوه مستشفى المنيرة بالسيدة زينب.

. مش معقول! يارب جيب العواقب سليمة، روحي غيري هدومك وأنا منتظركِ

. أنا جاهزة بس أغسل وشى من الدموع .. بعد قليل عادت ورافقها نديم إلى الشارع وإستقلا تاكسيا إلى المستشفى بشارع المبتديان.

هناك شاهدا جمعا غفيراً من الناس متجهين للاطمئنان على ذويهم شاهد وشعر بحجم الكارثة التى أحدقت بالناس سواء أثناء ركوبه التاكسي أو أمام المستشفى حيث كان الهلع والخوف قد أصاب الناس فى مقتل، الناس تسير سكارى بين الشوارع والأزقة والتى طالتها عيناه.

بصعوبة استطاعا الدخول من بوابة المستشفي المزدحمة بالأهالي

والأحباب، فى الصالة الداخلية سمعوا لغطا وأسئلة وإجابات فاترة من العاملين بسبب شدة الزحام، انتحى بأحدهم جانبا وأستفسر منه عن الحجرة التى ينزل بها المهندس سيف الصيرفي، بسرعة أستطاع موظف الاستقبال أن يرشده إلى موقع الحجرة،

أسرع ممسكاً بيد ثريا وصعدا للدور الثانى حتى وصلا إلى رقم الحجرة وشاهد بابها مفتوحاً على مصراعيه ومكتظة عن آخرها بالمصابين وذويهم أخترق الزحام فشاهد سيفاً راقداً على سريره وما أن شاهدهما حتى علت البسمة وجهه الحزين، أسرعت ثريا إليه ووضعت رأسها على صدره ناظرة إليه بعيون تائهة حذرة متسائلة :

. ليه سايبني أتألم؟ شاهد الأثر المتبقي علي وجهها الحزين؟

. حاجه بسيطة، إصابة بالعمود الفقري من أثر سـقوط دولاب الخرائط والوثائق على ضهري بعد أن وقعت علي الأرض من الهزة القوية التى أصابت المبنى ببعض الشروخ والتصدع ولكن الله سلم وتكاتف الزملا معي ونقلوني بعربية إسعاف خاصة إلى هنا وعملوا لي فحص أولي بعدها طلب الطبيب عمل أشعة أكس وزمانه جاى يقول ليا على النتيجة.

كان سيف يتحدث وهو ممسك بيد ثريا وباليد الأخرى يد نديم ولسان حاله يطلب منهما ألا يتركاه فى هذا الوقت العصيب، تفهم نديم إشارات سيف المبهمة وربت على يده مشجعاً مطمئناً بأنه سوف يظل معه إلى أن ينهض من كبوته هذه، بعد قليل حضر الطبيب وبرفقته طبيب آخر أكبر منه عمراً وجاءا ووقفا بجوار سيف٦٤متسائلاً:

. المهندس سيف الصيرفي؟

. ايوه أنا .. خير يا دكتور؟

. خير .. الحقيقة أن الأشعة أظهرت لنا إنك مصاب بكسر فى فقرتين بالمنطقة القطنية بالعمود الفقري، ح أكتب لك على خروج علشان حالة الطوارئ اللى موجودة ومش قادرين نلاقى أماكن لباقي المصابين وعلاجك ح يا خد وقت ونصيحة إنك تشترى كرسي متحرك لحد ما ربنا يسهل وتفوت الأزمة ونواصل العلاج.

نظر ثلاثتهم بوجه صامت وخيبة أمل، ما معنى ما قاله الطبيبان؟ إن إصابة العمود الفقري تعتبر من الإصابات الخطرة وتعادل فى خطورتها إصابة القلب والمخ، بعد قليل حضر أحد العاملين وناول سيفاً خطاباً يوضح فيه وقت الدخول والخروج من المستشفى وحالة الإصابة وكتبت ملاحظة بأن علاجه قد يستمر شهوراً وعلي إدارة العمل التابع له أن تراعى ذلك وأن تمنحه أجازة مرضية طويلة الأجل حسب القانون.

أمسك نديم بالخطاب وقراءه بضيق ثم تركهما متجها إلى الإدارة وقابل أحد المسئولين والذى أخبره بالخبر الصاعق المؤلم بعد أن علم بأنه خال المصاب حيث قال له الطبيب :

. آسف.. سيف أبن أختك حصل له شلل فى ساقيه من اثر الإصابة ولا يمكن علاج حالته لأنها من الحالات الصعبة التى لم يتوصل إليها الطب حتى الآن والعلاج بالخارج غير مؤكدة نجاحه .. أصارحك بأن تتجه على الفور لشراء كرسي متحرك حتى٦٥يمكنك نقل أبن شقيقتك عليه ونحن

كإدارة للمســـتشفى سوف نتولى المساعدة بما لدينا من نقالة والمساعدة علي نقله لسيارة إسعاف على نفقتكم.

لم ينبس نديم بكلمة وترك المكتب سائراً بالطرقة بداخل المستشفى يهذى بدون صوت فقد علم الخبر اليقين بأن هذا الشاب الذي بلغ الثلاثين عاماً منذ شهور سيظل كسيحاً لا يقوى على السير طوال حياته.

أقبل عليهما ولسان حال كل منهما يستوضح ما علمه من أخبار. لم يصرح لهما بالحقيقة وأخبرهما بأنه سوف ينقله إلى شقته مستخدمين سيارة إسعاف ثم مواصلة العلاج بعد هدوء الحالة التى تعم مصر من أثر ما أصابها من الزلزال.

بكت ثريا وسيف مازال ينظر إلى نديم بحسرة وألم ولكنه تشجع وتماسك مطيباً خاطر زوجته وأستأذنهما نديم فى إعداد سيارة الإسعاف، لم يمض وقت طويل إلا وحضر برفقة أربعة رجال ومعهم حمالة لنقل المصابين وتحت إشراف طبيب حديث التخرج تم نقله من على السرير إلى النقالة بين صراخه وألمه، تحركوا به فى دهالـــيز المستشفى المزدحمة والنـــاس تتخبط بعضها بعضهاالبعض ونديم يسير أمامهم متقدماً لإفساح الممر لهم.

هبطوا إلى الدور الأرضي وفى أحد الأجناب شاهدوا السيارة التى سوف تقله لم تكن سيارة إسعاف بالمعنى المتعارف عليه ولكنها سيارة بيجو إستيشن أعدت لنقل الموتى وقد أنزعج الزوجان ولكن نديم طمأنهما بأنه لا داعي للتخوف فلم يعثر على سيارة إسعاف نظراً لحالة الطوارئ بالبلد وهذه ستقوم مقامها.

لم يجد الزوجان أمامها أى بديل، وُضع المريض على نقالة أخرى بالسيارة ونفح نديم عمال المستشفى بقشيشاً كبيراً أسعدهم ثم إستقل كلٌ من نديم وثريا السيارة بجوار سيف يحدثانه بينما تتحرك مخترقة بهم شوارع القاهرة المضطربة متجهة إلى حي مصر الجديدة ثم توقفت أمام باب العمارة.

أسرع بعض المارة لينظروا ما بداخل السيارة وليشاهدوا المتوفى التي تحمله فقد كتب عليها من الخارج عبارة "تحت الطلب .. مخصصة لنقل الموتى" أشار نديم للبعض فأسرعوا يلبوا نداء الواجب والإنسانية التى يقبل عليها المصريون بكل روح وشهامة .. شاهدوا الشاب المصاب يتألم، أسرعوا بحمله بينما أسرع البواب بفتح باب المصعد، صعد القوم حتى الدور الأخير حاملين سيف المسجى على النقالة وقد ازدادت دموعه.

توجهوا به إلى شقته وأنهوا المهمة ومعهم السائق الذي حصل على أجره داعيا الله بشفاء المريض، أراد نديم مكافأة الرجال الذين حملوا سيفأولكنهم اعتذروا وأن هذا واجب عليهم، قدم شكره لهم وغادروا المكان وقد بدا عليهم الحزن لمشاهدة أحد المصابين الشباب من جراء الزلزال.

أسرعت ثريا تحتضن سيف باكيه ولكن نديم كان حازماً إذ قال لها ليس الآن وقت العواطف إبنتى ثريا، يجب علينا أن نبدل ملابسه بل نزيل ما عليه من أوساخ، طلب نديم من سيف النهوض فلم يستطع فعاونه حتى أجلسه وأدار جسده بحيث يستطيع مغادرة السرير، حاول مساعدته على الوقوف لكنه صرخ لشعوره بألم بظهره.

طلب نديم من ثريا أن تبدل له٦٧ملابسه وأسرع بمغادرة المنزل وأتجه

إلى أحد المطاعم وأحضر لهما طعاما وعاد به ثم طلب منها أن تطعمه حتى يعودهم بعد ساعتين وحينما سألته ثريا بانزعاج إلي أين أشار إليها بأنه راغب باللحاق بالمحلات قبل أن تغلق أبوابها لشراء كرسياً له ليتحرك عليه بسهولة.

أستقل نديم تاكسياً وأسرع إلى شارع شريف بوسط القاهرة وهناك عثر على آخر كرسي كان موجودا بأحد المحلات لم يقم أحد بشرائه نظراً لارتفاع ثمنه عن باقي الأصناف، أبتاع الكرسي وحمله بتاكسي عائداً إلى مصر الجديدة وبمعاونة البواب حمله نديم بالمصعد وعاد به إلى الزوجين الذين حينما شاهداه شعرا بأن منقذاً هبط عليهما حيث شاهد نديم البسمة الحزينة تطل من عيونهما بعد العبوس والوجوم.

تحدث نديم بقلب قوى دون التواء، أبنى سيف لابد أن تواجه الموقف بشجاعة وأنا لدى القناعة بأنك قادرٌ على هذا، لن نستسلم وسنعاود العلاج لدى أمهر الأطباء فى هذا التخصص، كل ما أبغية أن تتجلد وتتماسك وتشد من أزر إبنتى التى أشاهد الدموع فى عيونها مدرارا.

تحدثت ثريا ودموعها تشارك الكلمـــات، أونكل نديم أرجوك ألا تتركنا فى هذا الموقف الصعب ونحن ليس لنا سند بعد الله سواك، أرجوك بحق الجيرة التى أوصى بها رسولنا الكريم أن تظل بجوارنا ولا تتركنا فنحن أضعف مما تتصور.

جلس نديم بجوار سيف وأمسك بيده يقبلها، أندهش الشـاب ولكن نديم نظر إليهما متسائلاً: ألا تعلمان بأن الأب يحب أبناءه إلى أقصى درجة وأنتما أبنائي الذين لم أنجبهما، ثقي٦٨إبنتى بأننى سوف أظل بجواركما حتى

تتجلي تلك الغمة بإذن الله والآن أترككما حتى أنال حماماً يزيل عنى آثار هذا اليوم الحزين وسوف أعودكما وأظل معكما حتى الصباح، لن أبرح بيتكما حتى تطمئنا على حالتكما النفسية وأشعر بأن أبنائى عادت إليهما البسمة ثانية.

نهضت ثريا وأقبلت إليه محتضنة إياه تنظر إليه بدموعها الحزينة، أشكرك كثيرا أونكل نديم بارك الله فيك، اذهب وأغتسل وأبدل ملابسك ونحن فى انتظار حضورك.

غادر نديم منزل الزوجين حزيناً وتوجه إلى شقته وبعد أن أغلق بابها هاجمته حمى البكاء حيث كان يهذى لما شاهد وسمع وشعر أن رأسه سوف تصاب بلوثة عقلية فقد ظل متماسكاً أمام الصغيرين لوقت طويل والبكاء فى عينه أقرب من النفس إلى أنفه.

هدأ قليلاً واستعاذ بالله وحصل على حمام منعش أنعش فؤاده الحزين أتجه إلى سجادة الصلاة، فما حدث اليوم ألهاه عن إقامتها فى أوقاتها، أنهى صلاته خاشعاً داعيا الله بأن يقلل أثر هذا الحادث الأليم على الشاب الصغير وعلى زوجته الحزينة.

سمع طرقاً على الباب نهض من فوق سجادة الصلاة وفتحه فإذ هى ثريا تنظر إليه بعيون دامعة ولسان حالها يستفسر لماذا تأخرت أيها الأب الحبيب لم يجب بل أخذ بيدها وأغلق باب شقته وأتجه إلى شقتها وأقبل على الشاب الحزين النائم فى فراشه باسماً باشاً.

. تأخرت عليكم، أعطوني العذر٦٩لأنني كُنت أودى صلواتي التى

ضاعت منى لما حدث اليوم فقد زلزل ما جري مشاعري وأحاسيسي وأنا أشاهد الناس صارخة وجلة لكن الحمد لله على كل شيء فالخسائر البشرية قليلة لم تتعدى الخمسمائة قتيل وأربعة ألاف مصاب كما سمعت هذا من إذاعة لندن منذ قليل.

جلس بجوار سيف يلاعب شعر رأسه بأنامله والشاب أخذ وضع النوم مُخفيا وجهه بظهر نديم .. أشار نديم إلى ثريا طالبا منها أن تُعد لهما عشاءً شهيا .. تحركت بخطى بطيئة تدل علي ما تعانيه من ألم بدني ونفسي فلحق بها فى المطبخ ناظراً إلى عيونها الحزينة طالبا منها استبدالها بعيون أكثر تفاؤلاً وحيوية حتى نعبر تلك الأزمة على خير، هزت رأسها كأنها توعده بتنفيذ ما طلبه منها.

غـادر المطبخ عائداً إلى صديقه الصغير يُحادثه ويُمازحه بكلمات رقيقة تدخل البسمة على قلبه الحزين .. بعد قليل أقبلت ثـــريا لامعة الوجه باسمة الثغر يشع الضياء من وجهها الجميل، نظر إليها سيف وأبتسم لما شاهده فقد أنعكس هذا عليه وشعر أن الحياة مقبلة وليست مدبرة من أثر شعاع سحر الحبيبة الذي وصل إلى قلبه ومشاعره وأحاسيسه، عاوده الحنين إلى الماضي القريب ونبت قصة حبهما فى بداية نموه فأشرق وجهه أكثر فأكثر ونظر إلى نديم ثم نطر إليها متسائلاً :

هل يمكنك العزف على آلتك الجميلة؟ دهش كلّ من ثريا ونديم ولكنها تحركت وعادت ومعها آلة الناي وعزفت قطعة صغيرة جعلت سيف يصفق ضاحكاً قائلاً بصوت مرتفع لم٧٠تسمعه منذ مساء الأمس قبل وقوع

الكارثة "برافو .. برافو ثريا" أقبلت عليه وقبلته قبلة الحبيبة للحبيب هنا صفق نديم قائلاً " برافو ثريا برافو سيف" .

كان الطعام المعد سندوتشات فأقبلوا عليه في البداية بتأني ثم تطور فزادوا من سرعة تناوله حتى أنهوا عليه، أشار إليهما نديم :

أبنائي سأقوم بإعداد الشاي لكما .. صفق الزوجان وغادر نديم الحجرة متجها إلى شقته، اعترضت ثريا طريقه طالبة منه ألا يغادرهما، أنصاع لرغبتها ودخل إلى مطبخها الجميل والتى أعدته بذوق رفيع يناسب أحاسيسها ومشاعرها الرقيقة.

أعد نديم الشاي وأقبل نحوهما يناول كل واحد منهما كوباً بعد أن صحح وضع سيف بوضع الجلوس وأسند ظهره على مخدة سميكة أشعرته بالراحة بعض الشيء ريثما يتناولوا الشاي وأثناء هذا لم ينقطعوا عن الضحك والأحاديث المتبادلة.

ظلوا على هذا الحال حتى غلف النوم جفني سيف فأعاد نديم وضعه لوضع النوم وفردت عليه ثريا الملاءة وغادرا الحجرة وجلسا فى المساحة التى أمام الشقتين وباب الشقة والحجرة على مصراعيه حتى إذا طلب سيف عونا أسرعا بتلبيته.

حركت ثريا مقعدها لتجاور مقعد نديم تحدثه ودموعها قريبة منه، أونكل نديم ماذا نحن فاعلون فيما ألم بنا؟ نظر إليها نظرة الأب الحزين .. إبنتى لا تقنطي من رحمة الله وإذا أشتد الكرب على الإنسان فعليه اللجوء إلى الله، سكنت وهدأت ونامت على المقعد٧١وقد أثر عليها الهواء الرطب القادم

من الصحراء .. شعر نديم بأن محنة اليوم كانت قاسية على الصغيرين وهو كرجل متقدم فى العمر ومحنك وأشترك فى حرب عام ١٩٧٣ شعر بأن تلك المحنة من أصعب المواقف التى قابلها فى حياته.

بعد فترة زمنية قصيرة أيقظ ثريا طالبا منها التوجه والنوم بجوار سيف أو فى الحجرة القريبة منه، نظرت إليه مستفسرة دون حديث فأجابها بكلمات قليلة .. إطمأنى إبنتى فسوف أظل جالساً هنا لتلبية أى شيء ترغبان به، نهضت عائدة إلى شقتها ثم عادت إليه وأمسكت برأسه بين صدرها مقبلة قمة رأسه وهى تحادثه بصوتها المختنق بالدموع .. ربنا يخليك.

غادرته بعد أن أغمدت خنجراً طويل النصل فى قلبه الحزين فقد أثر فعلها وكلماتها عليه كثيراً وشعر بأن الزوجة الصغيرة تضع به كل أمالها وأحلامها ليخلصها ويخلص زوجها مما ألم به، سكن وقد هاجمه شعور بالضآلة والاحتقار لأنه لن يستطيع فعل أي شيء يُذكر.

الحيــاة بلا ســاقين

صبيحة اليوم التالي توجهت ثريا إلي مسئول فرقة الموسيقي العربية وشرحت له ما ألم بزوجها وتأثر الرجل كثيراً عارضاً خدمات الإدارة عليها ولكنها طلبت منه منحها أجازة طويلة وأن يبحث عن بديل فهى لن تستطيع الحضور كل ليلة إلى الفرقة والعزف وإمتاع الجماهير وقلبها ممزق الفكر لحال زوجها الراقد في فراشه دون حراك.

اتصل نديم بإدارة الشركة طالبا منهم منحه أجازة نظراً لظرف مفاجئ لإصابة أحد أقرباءه فى زلزال الأمس، واساه االمدير الذي كان يعتقد بأنه سوف يحضر مبكراً لحالة الطوارئ التى ألمت بالكثير من القطاعات بالدولة وخاصة الأطباء والمهندسين ولكن نظراً للظروف التي يمر بها فسوف يوافق على منحه أجازة لمدة أسبوع راجيا منه أن يقدر الموقف الصعب الذي تمر به البلاد.

تعاون كلٌ من نديم وثريا لوضع سيف على الكرسي حتى يحصل على حمام ويغتسل، بصعوبة مابين الجهد والإرهاق الذي كان باديا على نديم وصرخات سيف، توجها به إلي الحمام وتعاونا على نزع ملابسه بصعوبة فلم يكن لديهما خبرة فى هذا المجال بالإضافة إلي ما يعانيه سيف من ألام والتي كانت واضحة على وجهه الصبوح، نجحا فيما أقدما عليه وعاد الشاب إلي سريره أحسن حالاً.

بدليل التليفونات ظل نديم يبحث عن طبيب مشهور فى علاج

إصابات العمود الفقري وبعد أن عثر على طبيب وعيادته قريبة من العمارة التي يقطن بها "سيف" اتصل به وحجز موعداً له، قبل الموعد تحرك الركب حيث قام نديم بدفع كرسي سيف حتى باب المصعد وهبطا إلى مدخل العمارة فاندفع البواب يلقي بتحيته على الشاب عارضا عليهم مد يد المساعدة، قدم له نديم الشكر واستمر فى دفع الكرسي بشوارع مصر الجديدة حتى وصلوا إلى العمارة التي بها العيادة وبالمصعد اتجهوا إلي مكان الكشف ودفع الرسم المقرر للفحص انتظاراً لأن يحل موعد عرضه على الطبيب.

بداخل حجرة الكشف شاهد وعاين الطبيب مكان الإصابة والتي شعر أنها خطيرة خاصة حينما وضع إصبعه على المكان المصاب فأطلق سيفاً صرخة مؤلمة دفعت بزوجته للبكاء، نظر الطبيب إليهما طالبا عمل عدة صور لأشعة أكس ووجههم إلى عيادة طبيب متخصص قريبا من مقر عيادته، تحركوا صاغرين وهبطوا من العمارة وسار الركب مخترقاً الشارع حتي وصلوا إلي الشارع الذي به عيادة طبيب الأشعة.

قام الفنيون بإجراء عدة صور أشعة على المكان المصاب وجلس الثلاثة في بهو العيادة انتظارا للحصول على صور الأشعة وتقرير الطبيب المختص، تسلم نديم ظرفا به صور الأشعة وشرحا للحالة، عادوا ثانية إلى الطبيب المشهور وبعد أن حل موعد عرضهم شاهد الأشعة وتقرير الطبيب المختص فنظر إليهم ولسان حاله ينطق بما سوف يقول :

. آسف أيها السادة، الإصابة شديدة ودمرت فقرتين من فقرات العمـــود الفقري

بالمنطقة القطنية ولا سبيل لعلاج ذلك ولا تستمعوا لأي شخص يعرض عليكم إجراء عملية جراحية لأنها خطيرة وغير مضمونة العواقب وكل ما أستطيع أن أقدمه هو نوع من الدواء لتقيل الإحساس بالألم وتوصية لأحد المتخصصين للعلاج الطبيعي ليوضح لكما بعدة جلسات الأسلوب الأمثل لتحركاته ونقله من فوق الكرسي إلى سريره والعكس أو التوجه به إلي الحمام.

نظر الطبيب إلى سيف محدقاً به، أرجو أن تكون صلب الإرادة قوي العزيمة وأن تعلم بأنك ستقضي طوال حياتك رفيق هذا الكرسي فأهل نفسك لهذا.

نزلت تلك الكلمات قصيرة الجملة طويلة الزمن بطول عمر الشاب على الثلاثة نزول النار المحرقة، حاول نديم إعطاءه الأمل ولكن الطبيب كان جافاً فى حديثه ومتألما فى نفس الوقت لحال الشاب راجيا منهم أن يستمعوا لنصحه وما هي قدرة الإنسان أمام الأقدار والنوائب، هذا ما أعلنه لكم وما عليكم سوى اتخاذ القرار المناسب ولكن لا تنسوا نصيحتي فأنا أقولها ولى أبن فى مثل عمر هذا الشاب اليافع فى مقتبل العمر وقد ظهر إلى الحياة مُعوق لا يستطيع السير نظراً لأن زوجتي سامحها الله تناولت حبوباً للتخسيس دون علمي حتى تحافظ على رشاقتها ولم تحافظ عليها وأضرت بإبنى الأول ولم نجد له أي علاج وأنا الاستشاري والأستاذ الجامعي لم أجد بصيص أمل أمام تلك الحالات التى عجز الطب حتى الآن عن علاجها، الله معكم.

غادروا العيادة وهم لا يدرون إلي أين يسيرون أو إلـي أين يخطط لهم القدر، تحرك الركب بتثاقل وتكاسل بعد أن فر من أيديهم الأمل المنشود وقد علموا الحقيقة المؤلمة والتى قيلت قبل ذلك لنديم بمستشفي المنيرة.

وصلوا إلى شقة سيف وتعاون كلّ من نديم وثريا على نقله إلى سريره، نظر إليهما سيف بعيون مرتاحة معاكسة لما هما عليه قائلاً:

. الحمد لله علي كل اللي يجيبه ربنا، أنا شفت الناس فى المستشفى مكسرة دا غير اللي شفت جثثهم فى الشارع بعد ما رموا نفسهم من الشباك أو البلكونات خير!!

رقد الشاب فى سريره طالباً من ثريا عدم البكاء حيث يزيده هذا ألماً وضيقا ثم نظر إلي نديم شاكراً ما قام به من مجهود إنساني محاولاً تقبيل يده ولكن الرجل خطفها وانحنى عليه مقبلاً وجهه ويده وقد أثر هذا فى ثريا فبكت ثم أقبلت على نديم تحتضنه باكية والرجل ضاحكاً منها متسائلاً :

. مش معقول كده يا ثريا.!!عياط عياط ، شايفه قدامك العسل النحل سيف عامل إزاي؟ راجل صحيح، ربنا يقوى إيمانكم، المهم أخدتوني في الكلام. تحبوا تتعشوا إيه؟

تبادل الزوجان النظرات وأعقبتها الابتسامات حيث قال سيف سندوتش بسطرمة والتاني لانشون، نظر إلى ثريا حيث أخبرته بأنها تطلب نفس ما طلبه سيف، ودعهما على أن يعودهم سريعاً، أتجه إلى شقته يبثها أحزانه وآلامه حيث ظل كاتماً لانفعالاته أمام الصغيرين الذين ينظران إليه بأنه المنقذ وأن كل نظرة إليه تجعلهما٧٦متماسكين رابطي الجأش، هبط لأسفل

العمارة وإشتري العشاء الذي طلبه الزوجان.

عاد بعد نصف الساعة حاملاً الطعام ووضعته ثريا فى أطباق وأحضرت معه بعض المشهيات وتناولا الطعام بين المداعبات والضحكات حيث نظر إليه سيف طالباً منه ألا يتخلي عنهما فهما قد حُرما نعمة الأب والأم.

أضحكته تلك الكلمة حيث أخبرهما بأنه يستفيد بوجوده معهما لأنه حُرم من ابنته ولهذا فقد عوضه الله بابن وابنة وهو سعيد لهذا راجيا منهما ألا يبخلان عليه بتلك الصحبة، أسعدهما حديثه وإطراءه عليهما، ظلوا يتحدثون حتى خلد سيف إلى نومه فغادرا المكان جلوساً أمام الشقة ينعمان ببعض الهدوء والسكينة ، نظرت إليه ثريا متسائلة:

أونكل: هل سيظل سيف على هذا الحال؟ كلما شعرت بأنه سوف يحيا بدون ساقين أشعر بألم يعتصر قلبي، أرجوك ساعدني فلقد ضل بى الطريق فى متاهة الصحراء القاحلة وليس لي مرشدُ بعد الله سواك.

إبنتى .. يجب عليك التكيف مع الحقيقة التى أخبرنا بها أصحاب الخبرة بأن سيفاً سيظل هكذا يحيا بدون ساقين تتحركان لكنه سيظل يحيا بباقي نعم الله عليه من بصر وسمع وحركة اليدين والأهم هو العقل الذي ميزنا الله به عن باقي المخلوقات، ابنتي لا يجب عليكِ الغوص فى بحر أنت لست أهلاً له، بحر الغيب وقدرة الخالق فهذه أشياء أكبر من طاقتنا وعلينا الصبر والحمد لله كما فعل حبيب قلبي سيف.

أقبلت تجلس بجواره تحدثه حديث الهمس بين الطفل وأبيه، اونكل : هل تغضب مني كلما اقتربت منك؟

أبدا يا ابنتي العزيزة فأنا أحبك كما أحب إبنتى "نورهان" والتي افتقدتها، فحبي لكِ عوضني بعض الشيء عن الحبيبة الغالية بعيدة المسافة القريبة إلي قلبي المجروح، أنتِ بجواري دائما كما أن سيفاً هو الابن الذي لم أنجبه وكنت راغبـاً فى هذا ولكن الله لم يمن علي بتلك النعمة.

أونكل : أشعر بالخوف حينما تبعد عني بعد إصابة سيف فقد كان الحماية والأمان بعد أن حُرمت من أعز اثنين لي بالوجود، الأب الحنون الرحيم الحامي لي المحب لأن يراني ويقبلني من حين لآخر يبتاع لي ما تهفو إليه نفسي وأمي الحبيبة رقيقة القلب والمشاعر والتي تنبهت حواسي عليها وهي تقوم على خدمتي ورعايتي والاهتمام بى، لقد شعرت باليتم بعد فراقهما وقد زاد هذا اليتم من قسوة قلوب زوجات إخوتي وحزني لمسير إخوتي في ركابهن ولهذا فأنا أود أن أظل أجلس بجوارك وبجوار سيف وكلما نظرت إليكما شعرت بالأمان والطمأنينة.

أرجو منك يا ثريا أن تتصلي بإخوتك صباح الغد والذى يوافق يوم الجمعة وجميعهم فى راحة وتبليغهم ما أصاب حبيبك وزوجك سيف، لماذا أنتِ صامتة؟ هل اقتراحي هذا يضايقك؟

أبداً أونكل ولكنني أخشي سوء الزيارة، فأنت لا تعلم مقدار عبوس وجه زوجات إخوتي لأي أخبار ترد من ناحيتي وها أنت علي علاقـة تعارف بنا

تعدت العامين ولم تشاهدهم فى زيارة لي بل إن الاتصـــال التليفوني حُرمت منه أيضا، كُنت راغبة بأن أســمع إخوتي يتحدثون معي ويهتمون بأمري كما يفعل باقي الأشقاء، نفسي تهفو لأن أحادثهم بلقب "آبيه" ولكنهم حرموني من هذا الفضل وذاك العطف.

حينما كنت أنظر إليهم وأمي مازالت على قيد الحياة كنت أشاهد أبي فى صورهم وأجسادهم وحركاتهم وبعض تعليقاتهم بل جزء من الشبه بالوجه لكني حرمت من كل هذا وحينما رزقني الله بهذا الحبيب المغرد فى عزفه مثل كروان منتصف الليل أرسل لي الله اختباراً آخر فى سلسلة الاختبارات السابقة أتساءل دائما:

ماذا أفعل؟ لماذا تكره زوجات أخوتي وجودي بينهن؟ لماذا؟ أعيدها مرات بل مئات المرات.

لا تهتمي بكل هذا ولكن الاهتمام هو بالحبيب سيف، نظرت إليه مستفسرة : الحبيب سيف!! يسعدني أن اسمع هذا منك رغم شعوري بحبك لي ولسيف ولكن الإنسان يهفو دائما لسماع كلمات المديح والثناء، بارك الله فيك.

نهضت وأقبلت عليه تقبل قمة رأسه مثل الأمس وهو بدوره ربت على كتفها قائلاً :

. تصبحي على خير وربنا يديم عليكِ وعلي سيف الصحة والسعادة.

غادرت المكان وظل نديم جالساً غير راغب فى النوم فكل ما شاهده اليوم من مجهود مُضني لدفـــع سيف إلي الحمـام أو بالشـارع للمرور علي

الأطباء أشعره بأن هذا عبء كبير على تلك الزوجة الصغيرة، لقد أصبحت أمامه أعباءً كثيرة لا بد من أن يعمل على علاجها، آلام سيف البدنية والنفسية وآلام ثريا البدنية من رعاية هذا الشاب الذي يصل وزنه إلي حوالي السبعين كيلو جراما، هذا الوزن من الصعب التعامل معه.

تثاءب فنهض ليحصل على قسط من الراحة، دخل إلي حجرته وألقي بجسده المنهك غير قادر على التنبه من كثرة الإرهاق، راح فى نومه المتوتر والذى شاهد به كوابيس عن حالة الشاب المصاب وهو يتألم ويعاوده ما ظهر من آلام لدى الطبيب، ظل يتقلب ويصحو ثم يعاوده النوم، سمع طرقا أثناء نومه وقد خالجه شعور بأن هذا الصوت من آثار الكوابيس التي شاهدها أثناء نومه، لم يبال أو يهتم وعاد إلي نومه ولكنه سمع الطرق مرة ثانية وجرس الباب يرن.

أنصت لبعض الوقت فأيقن بأن هذا الطرق على باب شقته، نهض من نومه فزعاً محاولا معرفة من الطارق في هذا الوقت، هل عاد زوار الفجر للقبض على الآمنين مرة ثانية؟ من يكون؟ سمع صوتها الذي يستطيع أن يميزه من خلال آلاف الأصوات، إنها ثريا، فزع وأسرع جهة الباب وفتحه فإذ هي ثريا فزعة مضطربة.

تساءل:

. خير يا ثريا؟

. سيف.

. سيف.. ما له سيف.

. سيف سقط منى بالحمام ومش قادره أرجعه يقعد علي الكرسي.

أسرع نديم حافي القدمين لإنقاذ صديقه الصغير وتبعته ثريا واتجها إلي الحمام فشاهدا سيفاً جالساً أرضاً عارياً باكياً ناظراً إلي نديم بكل بؤس ومذلة رافعا يديه إليه طالباً منه انمساعدة.

. أرجوك أونكل نديم ساعدني، عايز أرجع أوضتى تعبان والبرد من أرضية الحمام مضايقنى، شوف حالي وعجزي، بقيت زى طفل عنده سنتين ومش عارف يساعد نفسه، مازال الشاب رافعا يده لأعلي طالبا العون ودموعه تشاركه كلمات الرثاء التي تحدث بها عن حاله.

أسرع نديم لعونه وبمساعده ثريا وقاما بستر جسده اتقاء البرودة وحينما حاولا رفعه سقطا أرضا بعد أن أرتطم رأس كل منهما بالحائط أو بالبانيو، وقف نديم لاهث الأنفاس من المجهود محاولا العثور على طريقة تساعده على إخراج الشاب من أرضية الحمام المبتلة والناعمة الملمس ولا يستطيع الإنسان أن يتحكم فى تحركاته.

أسعفته قريحته وأتجه وأحضر شريطا من السجاد موضوعا أمام طرقة الحمام وفرده خلف ظهر سيف وتعاون مع ثريا كما حاول سيفاً المساعدة بدفع يداه حتى جلس فوق السجادة، قام نديم بسحب السجادة للخارج وسيف يجلس فوقها حتى استطاعا التخلص من البلل الذي أثر على اتزانهم، ظل كلٌ من ثريا ونديم يجران الشاب فوق السجادة الصغيرة حتي وصلا إلي حجرة النوم، وقف نديم يلتقط أنفاسه ثم عاود عمله وأستطاع بمعاونه ثريا مساعدة سيف بأن يضعاه علي سريره .

الحمد لله، قالها نديم بعد أن كادت أن تخور قواه، نظر إليه سيف حزينا باكيا لما آل إليه حاله ولكن نديم أشار إليه بألا يفعل فصمت الشاب ونظر ثلاثتهم كلّ للآخر واندفعوا فى الضـــحك والتى محت من ذاكرتهم ما حدث منذ دقائق.

اليوم التالي اتصلت ثريا بأشقائها الذين أصابتهم الدهشة وأخبروها بأنهم سوف يأتون لزيارتها مساء هذا اليوم، حضر الأشقاء الثلاثة وجلسوا بعض الوقت محاولين العمل على رفع حالة المريض النفسية كما تقابلوا مع نديم والذى رحب بهم كثيرا.

قدمت ثريا استقالتها من عضوية الفرقة لتتفرغ لمراعاة سيف وقد أثر هذا على الحالة المالية لأن سيف هو الآخر لا يحصل على عائد من عمله لأنه كان يعمل مع شركة خاصة وهذا النوع من الشركات بدا يغزو الاقتصاد المصري ويتبع الأسلوب الرأسمالي وليس للناحية الإنسانية نصيب بها.

تنبه نديم إلى حالهما فأسرع إلى بلدته وتصرف بالبيع فى مبنى قديم خال من السكان وأقبل عليهما وأعطي سيفاً المبلغ الذي تحصل عليه بعيداً عن عيون ثريا، حاول سيف الممانعة مقدما شكره وتقديره ولكن نديم طالبه بتأجيل هذا حتى يرفع عنه الله تلك المحنة التي من الممكن أن يتعرض لها أي إنسان.

أصبح اللقاء الثلاثي يتم كل مساء على العشاء فى أيام البرد القارص حيث يقوم بالعزف كلّ من ثريا وسيف الذي كان يجلس على كرسي متحرك وبأنامله الرشيقة الحساسة يلهب٨٢مشاعر أي مستمع له.

بمضي الأيام أدي هذا الترابط الإنساني إلى التحسن الملحوظ فى الحالة النفسية لكلٌ من سيف وثريا بينما مازال نديم يعاوده الحزن كلما انفرد بنفسه على وضع هذا الشاب الذي حرمه القدر من والدية دفعةً واحدة ومن صحته ونشاطه بتلك الإصابة الغير قابلة للشفاء.

لم يترك نديم أي فرصة للبحث عن خبير أجنبي فى هذا المجال إلا واتجه إلي لقائه وبعد أن يشاهد الخبير صور الأشعة والتشخيص المكتوب من طبيب الأشعة يعتذر له بأنه لا يستطيع أن يقدم أكثر مما قدمه الأطباء المصريين.

أثناء انشغال ثريا بإعداد الطعام كان سيف يحاول تعليم نديم كيفية العزف على آلة القانون، في البداية أبدي نديم رفضه لأنه لا يستطيع أن يحرك وتراً واحداً ولكن بالمثابرة والتعود استطاع أن يكون جملة موسيقية مفهومة ترتاح إليها إذن أي مستمع، شجعته ثريا وساندته بالعزف معه على آلتها وبمضي الوقت تقدم نديم فى العزف وقد شجع هذا الزوجان بالتصفيق والتحية له لأكثر من مرة.

أصبح كلٌ من سيف ونديم يتبادلان العزف مع ثريا أثناء اللقاءات الليلية وقد أسعدهم هذا مما أدي إلي الشعور الجميل نظرا لسماع الموسيقي بالتحسن الواضح علي الحالة النفسية للزوجين.

أثناء فصل الصيف كان نديم يقوم بدفع الكرسي الذي يجلس عليه سيف وبرفقتهما ثريا للتنزه ببعض الشوارع القريبة من العمارة وقد أصبح من المعتاد

أن يشاهد المارة هذا الشاب الوسيم القابع على الكرسي ووالده يدفع به ليعمل علي الترويح عنه.

مضي أكثر من عامين وسارت الأمور بالثلاثة علي هذا النهج، يعمل نديم منذ الصباح حتى غروب الشمس فيعود ليتناول طعامه مع الزوجين الحبيبين ثم يغادرهما إلى حال شأنه ثم يعودهما ويكمل معهما السهرة بعد أن يحصل على قسط من النوم ليستعيد نشاطه.

لاحظ كلّ من ثريا ونديم أن الحالة الصحية لسيف ليست على ما يرام فقد تبدل لون عينيه وحدث تضخم بجسده ويشكو بعض الآلام فتوجها به ذات مساء لأحد الأطباء الذى قام بتحليل للدم للوقوف على أسباب ما يؤلمه كانت النتيجة سيئة للغاية ولم يتوقعها صديقاه. إصابة الكبد "فيرس c " وتبين أن تلك الإصابة نتجت يوم حدوث الزلزال بأن قامت الممرضة بحقن سيف بمضاد حيوي بسرنجة مستخدمة مع عدة أشخاص في وقت واحد.

وضع له الطبيب نظاماً غذائيا مع برنامج حقن لعلاج تلك الحالة، استمر الشاب يتلقي العلاج لعدة أشهر وبعدها أعيد التحليل وكانت النتيجة سيئة قرر الطبيب إجراء جراحة عاجلة لاستئصال جزء من فص الكبد حتى يعمل على تقليل نسبة الميكروب بالجسم.

تردد سيف وقد أيده كلّ من ثريا ونديم ولكن الطبيب حذرهم من أن التأخير سوف يأتي بنتائج سلبية وتصبح حالته غير قابلة للشفاء، وافق الزوجان علي إجراء العملية بعد أن وعدهما نديم بتوفير المبلغ.

حاول سيف التصرف فى أرضه الزراعية بالبيع ولكن شروط المزارعين كانت قاسية كل فدان يتم بيعه يحصل المستأجر على فـدان بالمقابل بعقد تمليك دون دفع أي مليم، شعر أنهم يستغلون الظروف الصعبة الذي يمر به عرضت عليه ثريا التصرف ببيع سيارة سيف فهو لم يعد قادرا على قيادتها وسوف تستهلك بوضعها داخل الجراج ، تم بيع السيارة وفي اليوم التالي توجه نديم لمقابلة الطبيب والاتفاق علي أتعاب العملية.

هذه هي الليلة الأخيرة وبالغد سيتم إجراء العملية فى الصباح الباكر انتظر سيف بعد أن شاهد ثريا تتجه إلي المطبخ واقترب من نديم وناوله ظرفان وطالبه بإخفائهما، نفذ نديم رغبة صديقه الشاب بينما حادثه سيف بصوت خفيض.

أونكل نديم :

الظرف الأول وكتب عليه رقم واحد تفتحه فى حالة وفاتي، حاول نديم مقاطعته ولكنه أشار إليه بالسكوت، ستجد فى هذا الظرف كل ما يخصني ويخص بلدتي طوخ قليوبية ورقم تليفون ابن عم والدي الحاج حسان، اتصل به وهو سيقوم بكل الإجراءات في تلك الأحوال وأرجوك أن تقف لتلقي العزاء فليس لي بعد الله وثريا إلا أنت.

الظرف الثاني وكتبت عليه رقم اثنان، رجاء مني برعاية ثريـا حبيبة قلبي والتي سوف أتركها وحيدة تقاسي من قسوة بعض الناس، كن بجوارها ونحن نحبك ونسعد بك، رتب حياتها وأرجو إذا عثرت على شخص تشعر بأنه سيعمل علي راحتها وسعادتها بأن٨٥تقرنها به.

أقبلت ثريا حاملة مشروبا خفيفا مع عدم تناول سيف لأي طعام بناء علي تعليمات الطبيب، أمضوا سهرتهم وغادرهما نديم متجها إلي شقته على أن يقبل في الصباح لمرافقتهما إلي المستشفي التي ستجري به العملية.

انفرد نديم بنفسه في شقته وشاهد الخطابين وهما مغلقان ولم يقم بفتح أي منهما احتراما لوصية صديقه سيف، دمعت عيناه بأن يتعجل الشاب لقاء ربه هل شعر بأن أجله قد دنا موعده؟ عالج دموعه واغتسل واتجه إلي غرفته وألقي بجسده المتهالك عليه وراح في نومه وقد أثر عليه حديث سيف فنهض مذعوراً متخوفاً من الغد.

في الصباح أقبل عليهما نديم منشرح الصدر ليقلل من أثر الحزن الذي كان باديا عليهما، استقلوا تاكسياً واتجهوا به إلي المستشفى الخاص والذي إتفق معه الطبيب علي إجراء الجراحة، فى الموعد المحدد أقبل الطبيب بصحبة بعض زملاءه وقد وضع المعاونون سيف على ترولللى يدفعون به إلي غرفة العمليات بينما اتجه نديم إلي الحسابات ودفع نفقات إجراء الجراحة وقد تكلفت الجراحة ثمن السيارة وأضاف نديم من جيبه الخاص خمسة آلاف جنيه اقترضها من عمله تخصم على سنتين.

ظل نديم وثريا جالسين بالاستراحة ولم تكف ثريا عن البكاء كما أقبل شقيقها الطبيب وتلاه الشقيقان الآخران وجلسا بعض الوقت ثم غادرا المستشفي على وعد بالعودة عصر هذا اليوم.

مضي على وجود سيف بداخل غرفة العمليات خمس ساعات خرج بعدها الأطباء واللهفة واضحة على ثريا مستفسرة عن حالة زوجها، انتحى بها شقيقها الطبيب وأخبرها بان القلب لم يتحمل نزف الدماء الذي حدث حيث فقد دماء كثيرة حاولت المستشفي تعويضه ولكن القدر كان أسرع منهم لم تستمع لباقي الحديث حيث سقطت أرضاً مغشياً عليها وتم نقلها لقسم الإنعاش لمحاولة إفاقتها.

نظر نديم لمن حوله وكأن لسان حاله يخبرهم بأن هذا الشاب كان يعلم أكثر منهم بدنو أجله وما كتبه من خطابات سلمها له كما أنه قبل التوجه لإجراء العملية طلب منه أن يحتضنه ويقبله وهو نائم على النترولي الذي يحمله لغرفة العمليات، نفذ رغبته واحتضنه الشاب موضحاً بأن هذا هو آخر لقاء به ولن يراه بعدها ولكن نديماًابتسم مرغماً قائلاً له ولكني سوف أراك ثانية ، ضحك الشاب مؤكداً على حديثه لنديم مخبراً إياه بأن الأحياء يشاهدون ألموتي بعد فراق أرواحهم.

أسرع نديم إلى شقته وفتح الخطاب الأول وقرأ ما به من إيضاحات حيث كتب سيف كل شيء بوضوح" من اسم البلدة وأسم ابن عم والده ورقم تليفونه ووصيته بأن يدفن بقبر والديه ورجاء بأن يقوم كلّ من ثريا ونديم بزيارة قبره فى الأعياد أسوه بباقي الموتي كما أخبره بأن له قطعة أرض زراعية تنتج فاكهة المشمش بيد ابن عم والده وقد وعده منذ عام بأنه مستعد لتسليمها إليه في حال طلبها ورجاء منه بأن يسلم تلك الأرض إلي زوجته ثرياويبلغها بأنه مازال يحبها ويقدرها٨٧كل تقدير وهو متوجهاً للقاء ربه.

نُقلت ثريا إلي شقتها بعد أن رفض الأشقاء بأن تنقل لمنزل أحدهم حتى يستطيعوا أن يقدموا لها كل عون ويرسلوا بزوجاتهم وأبناءهم لرعايتها بعد هذا لحق الأشقاء بجثمان سيف الذي تم نقله إلي البلدة والتقوا بابن عم والده الذي أعد كل شئ ونصبت خيمة العزاء وعلم أهل البلدة فأقبلوا يقدمون واجب العزاء فى الفقيد.

انتهت فترة العزاء وعاد نديم إلي شقته بعد أن أبلغ ابن عم والد الفقيد بما أوصاه به الراحل سيف لهذا قرر الرجل بأنه من باكر مستعدٌ لأن يسلم الأرض إلي أصحابها وقد طلب منه نديم تأجيل هذا لبعض الوقت حتى يتثني علاج ثريا من أثر الصدمة.

عاد نديم إلى شقته شخص آخر لا يقوى على الحركة لكنه كان يتنفس ويبكى كارها للحياة التي تخطف الأحباب، أدي صلاة اليوم وراح في نومه.

ثـــــــريا

نهض نديم صباح اليوم التالي محاولاً تذكر ما حدث بالأمس، لم يقتنع بأن صديقه يرقد الآن تحت الثري بجوار والديه بينما كان بالأمس بجواره بالشقة المقابلة، تنهد مندهشاً من القدر ثم تذكر صديقته الصغيرة فأبدل ملابسه واتجه إلي شقتها وضغط على جرس الباب حيث فتحت له سيدة علم منها بأنها زوجة شقيقها الأكبر، خشي أن يُطيل معها الحديث لأنه يعلم أنها قد أساءت إلي ثريا أثناء إقامتها بمنزلها فترة الدراسة.

من حديثها معه علم أن ثريا مازالت تعاني من المرض وهي كأم وزوجة راغبة فى أن تعود إلي أسرتها وأبنائها وعملها كما طلبت منه البحث عن أحد يرعى جارته لأنها سوف تغادر المنزل بعد نصف ساعة، وصل إلي أسماعهم صوت أنين ثريا وهى تدعو نديم للدخول، أقبل عليها الرجل وشاهد حالتها السيئة، نظرت إليه باكية ثم طلبت من زوجة أخيها أن تغادر المنزل لحال سبيلها وهى تخبرها بأن أونكل نديم سيقوم علي رعايتها.

نظرت إليها زوجة شقيقها نظرة قاسية ثم تغيبت بعض الوقت وعادت تتحدث معها بعد أن انتهت من ارتداء ملابسها مُعلقة بأن هذا شيء سيء وكيف لسيدة أن تظل مع رجلٌ غريب فى شقتها بمفردهما؟ نظر إليها نديم مشيراً جهة الباب طالباً منها مغادرة الشقة بدلاً من طردها واهانتها، أصابت السيدة الدهشة وقررت بأنها سوف تُرسل بزوجها ليجد حلاً يحمى به شرف العائلة، بكل قسوة دفعها نديم خارجاً وصفق الباب خلفها.

بكت ثريا ثانية ولكن نديم طلب منها التماسك والجلد فالموقف عصيب وليس هذا وقت البكاء ولكنه وقت وضع الحلول لما نقابله من أزمات خاصة سوء حديث زوجة شقيقك وسوف يتطاول قساة القلب عليكِ

سكنت لرجائه وقدم لها الطعام ولكنها كانت غير راغبة به، أشارت إليه بزجاجة الدواء المهدأ الذي قرره طبيب الأعصاب، حاول إقناعها بأن تتناول طعاما يسيراً دون جدوى، ناولها قرصاً مهدئا وكوبا من الماء، تناولته وأعقبته بشربة ماء قليلة وفردت جسدها على السرير ففرد الملاءة عليها وغادر شقتها متجهاً إلى شقته وقد ساورته الظنون والأفكار السيئة لما سوف ينجم من تصرف زوجة شقيق ثريا من سوء الحديث والتجني علي تلك السيدة الصغيرة.

ظل نديم يفكر كيف يراعي صغيرته هذه فهى تحتاج إلي رعاية النساء وهو كرجل لا يجب أن تُكشف عليه وهى مريضه وتنتابها حالات كثيرة من الضيق والبكاء، لابد لي من العثور على سيدة ترعاها خاصة بعد ما شاهدته من زوجة شقيقها، توقع أمراً وصدقت فراسته بأن أشقائها سوف يقاطعونها لما سوف تحمله لهم زوجة أحدهم من أخبار مُلفقة عن شقيقتهم وهم مرهفي الأذان.

قبل المساء أسرع لأحد المحلات وأحضر طعاماً إلي صغيرته وعاد به إلي شقتها وطرق باب غرفتها عدة طرقات ، بعد قليل سمع صوتها الواهن يطلب منه الدخول، أقبل عليها وشاهدها كما تركها عصرا، ساعدها علي الجلوس ووضع الطعام أمامها وهي تنظر إليه نظرات الحزن والرثاء علي فقد الحبيب، تحدث بكلمات قليلة :

. إحنا أولاد النهاردة، أرجوكِ كلي علشان صحتك تتحسن ونقدر نزور حبيبنا الغالي سيف يوم الخميس الجاي.

لم تنبس بكلمة، ناولها الطعام قطعة بعد قطعة وهي تحاول المضغ والبلع ولكن الطعام رفض أن يتجه الى المعدة، ببعض جرعات من الماء ساعدها علي البلع، شعرت بأنها غير راغبة فى استكماله .. نظر إليها باسما فإنعكس هذا عليها ودفعت بها إلي الأمل والسعادة عارضا عليها إقتراحا :

. إيه رأيك فى كباية شاي؟ أشارت إليه بهزة رأس خفيفة، أسرع إلي المطبخ يُعد لها الشاي وعاد به وقدمه لها مستأذنا بأنه سوف يتجه إلي شقته طالباً منها أن تتصل به تليفونيا لو احتاجت لأمر ما.

غادر الشقة وأثناء أن هم بغلق بابها شاهد شقيقها الطبيب يغادر المصعد، تبادل الاثنان النظرات، رغب الشقيق فى العودة فاستمهله نديم طالبا منه الانتظار ولكنه غادر المكان عائدا إلي المصعد وألقي عليه بجملة صغيرة أثارته وأصابت كبريائه :

. كلام راوية طلع مظبوط.

فتح نديم باب شقته حانقا علي أشقائها دون معرفة الحقيقة فقد حكموا عليها حكماً جائراً ظالماً تاركين شخصاً غريباً يرعي صغيرتهم فى تلك الظروف الصعبة، أبدل ملابسه وتناول طعاما بسيطاً واتجه إلي حجرته على أمل أن يعود لزيارتها قبل العاشرة مساءً حتى يطمئن عليها.

خلد إلي نومه وأســـــتيقظ بعد ساعة تقريباً فأتجه إلي شـقة ثريا ليطمئن

علي أحوالها، دق الباب مرتين دون مجيب، ذكر أسمها عدة مرات دون مجيب، وقف قليلاً متسائلاً : هل مازالت سابحة فى نومها؟ فتح الباب بهدوء حتى إذ شاهدها علي وضع لا يجب أن يشاهدها عليه تراجع ولكنه شاهدها كما تركها نائمة على ظهرها ومغطاة بالملاءة.

أقترب منها محاولاً إيقاظها ولكنه شاهد بعض الفقاقيع والسوائل التى خرجت من فمها، تخوف وأقبل عليها مناديا بصوت مرتفع دون نتيجة، هز كتفيها دون نتيجة أجلسها وحدثها دون مجيب، أعادها إلي وضعها السابق وأمسك بذراعها ورفعه وتركه فسقط مرة واحدة، أرتبك الرجل وأيقن بأن صديقته الصغيرة لاقت ربها .. نظر بجوارها على الكمودينو فشاهد زجاجة المهدأ فارغة، أيقن أنها أقدمت علي الإنتحار.

جلس صامتاً بعض الوقت وأيقن أنه مُقبل على مصيبة كبيرة مع فضيحة ستلوكه بها الألسن، لم يستطع التفكير فعاد إلي شقته محاولا إعادة التفكير وكيف الحل؟ هل يبلغ الشرطة أو يتصل بأشقائها وهم يعلمون عنه أنه رجل سيء من حديث راوية زوجة شقيقها الأكبر مصطفى كما أن شقيقها شوقي شاهده وهو يغادر شقتها وهم يعلمون أن لديه نسخة من مفتاح الشقة.

توتر وطلب من الله أنْ يزيل عنه هذا الكابوس الذي ألم به، فرد ساقيه على سريره محاولاً تدبر أمره ولكنه راح فى نومه، استيقظ فزعاً حينما تذكر ما أصاب صديقته الصغيرة، نهض متجهاً إلي المطبخ ليعد لنفسه كوباً من الشاي وقبل أن يدير مفتاح الإضاءة شاهد ضوء مطبخ ثريا مضـــاء فتعجب

لهذا وهو متأكد أن كل أضواء الشقة مُغلقة باستثناء حجرتها، بعد قليل شاهد طيفاً أو شبحاً لجسد يتحرك فى المطبخ، قُطعت أنفاسه وأصابه العرق الغزير متسائلاً من يكون هذا الشبح؟ أيعقل أن يدخل أحد شقتها فلديه المفتاح وهو يعلم منها ومن المرحوم سيف بأنه لا توجد نُسخ من مفتاح باب الشقة إلا مع ثلاثتهم.

تسلل بخطوات بطيئة وحذره إلي شقتها وفتح المزلاج وتسلل بهدوء ممسكاً بقطعة من الحديد للدفاع عن نفسه فى حالة وجود خطر، نظر من فتحة الباب الضيقة فشاهد صديقته كما هي نائمة أو متوفاة بعد انتحارها، عاد مُسرعاً إلي شقته والتوتر قد أخذ منه نصيباً كبيرا .. جلس بعض الوقت يفكر فيما حاق بصديقته ومن يكون هذا الشبح خاصة أنه حينما أدار كالون الشقة وجده علي حاله وانه مازال مغلقاً.. إذاً هناك كائن ما.. من يكون؟

عاد إلي المطبخ فشاهد الشبح أو الخيال مرة أخرى، تأكد له بأنه ليس واهماً، تراجع متخوفاً وأتجه إلي باب شقته وأغلقه بالكالون ووضع خلفه كرسياً واتجه إلي سريره ينتفض خوفاً ورعُباً.

مازالت الأفكار والهواجس تهاجم عقله ولكنه سمع صوت محاولة فتح باب شقته وسمع صوت الكرسي يقع أرضاً، أرتعد وماذا هو فاعل؟ نظر بزاوية ميل على الطرقة المظلمة فشاهد خيالاً يلتحف بالبياض يسير ألهويناً، كاد قلبه أن يتوقف وإعتقد بأن ما شاهده هو شبح المرحوم سيف الذي أقبل للإنتقام منه أو معاقبته لعدم تنفيذه ما جاء بالخطاب الثاني، سمع بعدها صوتاً قوياً وصوت أنات.

تحرك بحذر وأتجه إلي الطرقة وشاهد الشبح ملقي أرضا ولم يتبين من هو ولكن الشبح أزاح من على وجه الملاءة التى تستره فشاهده وعرفه، لقد كانت صديقته .. أفاقها بين سعادته بأنها مازالت علي قيد الحياة وتتحرك .. سمع أناتها تطالبه بأن يساعدها علي التوجه إلي شقتها .. حملها على يديه كما يحمل الأب طفله الصغير ووضعها على سريرها وبعد أن أزال عنها الملاءة شاهدها وقد أبدلت ملابس النوم التى تركها عليها وارتدت ملابس أخري، تملكته الدهشة وبعد أن استلقت علـي ظـهرها ومازال جالساً بجوارها تنبهت ونظرت إليه متسائلة:

. أونكل نديم أنا آسفة، خفت لما لقيت نفسي لوحدي قمت من نومي لقيت بعض الفضلات التي طردتها معدتي فأثارت ضيقي فنهضت لأحصل على حمام وأبدل ملابسي وحاولت إعداد كوب من الشاي ولكني شعرت بالإرهاق فأردت أن أطمئن عليك ولم أعلم التوقيت والتحفت بتلك الملاءة حتى لا تصيبني نزلة برد من التيارات الهوائية فى منطقة التراس التي بين الشقتين.

تنهد الرجل متسائلاً : لماذا حاولتِ الانتحار؟ نظرت إليه بدهشة متسائلة من أخبرك بهذا؟ أشار إلى علبة المهدأ الفارغة، ابتسمت له وأخبرته بأنها نسيت ووضعت زجاجة المهدأ مقلوبة دون غطاء وحينما رغبت فى قرص آخر سقطت كل الأقراص بداخل العلبة الكرتون فتركتها علي حالها.

نظر نديم بداخل العلبة الكرتون فشاهد أقراص المهدأ، غمرته السعادة وأخبر صديقته بأنه من باكر سوف يبحث لها عن سيدة ترعي مصـــــالحها

حتى يأذن الله لها بالشفاء فأشارت إليه بالموافقة، طلب منها أن ترشده عن كل شيء ثمين حتى يتمكن من المحافظة عليه نظراً لحالتها ويمكن لتلك السيدة أن تستولي على مصاغك وُحليك، أشارات إليه ووجهته إلي الأشياء الثمينة والتى يمكن أن تستولي عليها تلك السيدة، أقترح عليها بأنه سوف يُغلق باقي الحجرات ويترك لها حجرتها والحمام والمطبخ وافقته علي هذا.

***

حمل نديم كل الأشياء الثمينة الى شقته للمحافظة عليها من العبث أو السرقة، فى اليوم التالي توجه إلي بلدة "أم إبراهيم" الدادة التي كانت تخدم والدته، دخل عليها منزلها القديم فوجدها جالسة بعد أن كف بصرها، رفعت صوتها وهى تناديه:

. تعالي يا نديم يا ابني.

دُهش نديم فأتجه إليها فرحبت به وبعد نهاية كلمات الترحيب المتبادلة سألته عن الخدمة التي يريدها منها، أخبرها بما يريده، صمتت السيدة قليلاً :

. البت نعيمة هيا اللي تنفع فى المشوار ده، البت أمينه وشاطره ولهلوبة وعفية، أنت لسه موجود بنفس الشقة.

. ايوه يا أم إبراهيم

. بكره ح تكون عندك وتفضل مع المحروسة جارتك وربنا يعينك، طالع للمرحومة أمك، كانت دايماً تفكر فى الناس الغلابة والمحتاجين .. هيه الله يرحمك يا أم نديم.

غادر منزلها سعيداً فرحاً بعد أن عثر علي من سيتولى أمر صغيرته والتي تجمعت فوقها كل أحزان العالم، أسرع إليها يخبرها فسعدت بهذا الخبر أعد لها الطعام وساعدها على السير حتى باب الحمام وأنتظرها حتى غادرته فساعدها حتى استلقت على سريرها يضاحكها ويمازحها محاولاً إزالة جبلٌ من جليد الحزن والألأم التى واجهته فى الأسابيع الأخيرة.

أحضر كرسي وجلس عليه بجوار سريرهاُ يحدثها وهي تنظر إليه منصتة دون إجابة، ساعدها علي الجلوس فوق السرير محاولا إخراجها من حزنها ومرضها، لم تفلح محاولته سوي أنها كانت تستمع إليه دون تعليق، أعادها إلي وضع النوم وغادر الحجرة بهدوء وترك الصالة مضاءة حتي لا تصبح الإضاءة مباشرة بحجرتها مما يساعدها علي النوم والراحة.

عصر اليوم التالي سمع طرقاً علي باب شقته ففتحه فشاهد سيدة فى العقد الرابع وتبين أن أم إبراهيم غير المبصرة وصفت له نعيمة بدقة.. أشار إليها متسائلاً : نعيمة؟

. أيو يا بيه.. أنا جاية من طرف أم إبراهيم ، هيا عـرفتني بكل حاجه. عايزاك تطمن على بنتك إنها حتكون فى الحفظ والصون.

سار برفقتها يفكر في حكمة تلك السيدة العجوز غير المبصرة والتي لم تحصل علي أي قسط من العلم، فقد أخبرت "نعيمة" بأنها سوف تقوم علي خدمة "ثريا" ابنة نديم بك بعد مرضها نظرا لوفاة زوجها الشاب، تعجب من خلق الناس ومحافظتهم علي أسرار وشرف الآخـــرين بعكس زوجة شقيقها

الأكبر وهي سيدة متعلمة والتي قامت بفضح ابنة خالتها ثريا وجعلت الألسنة تلوك سمعتها، فتح باب شقة ثريا وطرق على باب حجرتها طرقتين سمع صوتها الواهن بالسماح له بالدخول فأخبرها قبل أن يشرع فى فتح الباب بأن بصحبته نعيمة التى ستقوم على رعايتها.

أقبلا على ثريا وظهر من بين ثغرها بسمة صغيرة رقيقة أعادت إليه الأيام السابقة قبل الحادث الأليم الذي أودى بحياة حبيبها سيف، شاهدت ثريا اثنين بجوارها يملئان عليها الوقت بالأمان والراحة والرعاية ولن تظل حبيسة شقتها بمفردها لحين عودة نديم.

مضت الأيام علي ثريا ونعيمة تؤدى الواجبات الملقاة على عاتقها بكل أمانة وقامت بالعناية بالشقة ونظافتها ولم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا ووضعت عليها لمسات من عقلها ويدها، أصبحت ثريا أحسن حالاً بعد مُضى عشرة أيام على وفاة سيف وبالغد سوف تتجه بصحبة نديم لزيارة قبره.

اليوم التالي رافقت نديم واتجها إلي قرية الراحل سيف والتقيا مع أفراد أسرة أبن عم والده الذين رحبوا بهما وبعد قراءة الفاتحة وبعض ما تيسر من القرآن الكريم دعاهم ابن العم لمائدة الطعام بمنزله وأقبلت سيدات الأسرة يقدمن المواساة فى الفقيد.

بعد الغداء قدم أبن عم والد الفقيد العقد المسجل الذي يفيد ملكية الأرض إلي ثريا مخبرا إياها بأنه أرفق بهذا العقد تنازل رسمي مسجل بالشهر العقاري منه بأنه قد تنازل عن حقه بالميراث لها وهذا نظير حصـوله على عوائد تلك

الأرض قرابة الاثنى عشر عاما دون دفع أى مليم لسيف أو للمرحوم والده وبهذا أصبح خالص الذمة من هذا الدين، كادت الدهشة تصيب الإثنان كما عرض عليهما أن يرعي الأرض نظير نسبة عشرة فى المائة من العائد وهذا بعقد يجدد كل سنة إذا رغبتِ فى هذا، غادر الإثنان القرية بعد أن حملا ذكرى طيبة لبعض الأقرباء الذين يخشون الله فى تعاملاتهم.

وافقت ثريا علي اقتراح ابن عم والد سيف بالإشراف على أرضها الزراعية نظير النسبة التي طلبها وسوف تكلف المحامى بأن يُعد العقد لتلك الشراكة واتفقا على الموعد المحدد.

مضى شهرٌ على وفاة سيف وتذكر نديم الخطاب الثانى، أتجه إلى مكتبه وفض الظرف وقرأ الخطاب، لم يكن خطاباً بالمعنى المتعارف عليه ولكنه رجاء موجه من سيف إلي نديم بمراعاة أرملته وأن يتخير لها الشخص المناسب الذي يقترن بها ويحافظ عليها حتى تلقاه فى البرزخ.

تحير نديم فيما طلبه منه الراحل سيف، فالزواج وما شابه ذلك من الأمور الشخصية والعاطفية لا يفيد التعامل معها كأنها أرقام وحسابات فهناك المشاعر والأحاسيس التي تساعد في إتخاذ القرار.

مازال يفكر: ما أدراني بأن الزوج القادم لإبنتي ثريا سوف يحافظ عليها ويرعاها مثل ما كان يفعل الراحل سيف دمث الخلق طيب العشرة، لا أعتقد بأن شاباً في مواصفات سيف سوف يتكرر خصوصا من جهة القبول والراحة النفسية.

أخشي أن أتدخل في مثل تلك الأمور فتصبح النتيجة سيئة وأتحمل أنا وزر ما رشحت وأيدت وإقترحت فيكفي ما حدث لي، فأنا لم أوفق في إختيار زوجة لي فهل أوفق في إختيار زوجا لهذه الشابة الرقيقة؟ لا أعتقد وكفاها ما حدث لها علي أيدي زوجات أشقائها واللائي لم تراعي إحداهن الله في التعامل معها.

ولماذا إذا طلب مني سيف هذا الطلب الغريب؟ أعتقد أن هذا نابع من شدة حبه وتقديره لثريا وثقته في شخصي بأن طلب مني ذاك الطلب الغريب.

سوف أحاول في المستقبل أن أحاور ثريا فيما رغب به سيف حتي تستقر وترتاح ويرتاح بالي أنا أيضا، رحمك الله يا سيف لقد كنت مثل الشعاع الرقيق الذي يطير في الفضاء ويختفي عن الأنظار لكنه يترك الأثر الطيب لكل من شاهده.

حديث غير متوقع

مضى علي وجود نعيمة برفقة ثريا أسبوعان تحسنت خلالها حالتها البدنية نسبياً وطوال تلك الفترة لم يتناول نديم طعامه إلا معها حتى يدفعها إلي ذلك والتي كانت زاهدة فيه ولكن الآثار السلبية مازالت لم تفارقها فالحزن كامن فى القلب لا يبغى فراقه.

فى أحد الأيام بعد عودة نديم من عمله ولقائه مع نعيمة مستفسراً منها كعادته عن حال ثريا أخبرته إنها طوال هذا اليوم وهى مستغرقة فى النوم رافضة لأي طعام أو شراب قدمته لها، إستأذن فى الدخول عليها فلم تجبه فطلب من نعيمة أن تتأكد بأن سيدتها فى حالة تسمح بأن يدخل عليها حجرتها، عادت بعد قليل لتخبره بأن سيدتها مازالت نائمة ولكن يمكنه أن يُطل عليها ويشاهدها، حدثها فلم تجبه تحير قليلاً وماذا هو فاعل وكيف التصرف؟

طرأت على ذهنه فكرة فأقدم عليها، حمل آلة القانون وجاء بها قريباً منها حتى كادت أن تلامس أنفها، تحركت قليلاً بينما أمسك به وقام بالعزف عليه قطعة موسيقية لأغنية شهيرة للمطرب المشهور كارم محمود "سمره يا سمره فتني هواك ...."

زادت من حركتها وتنبهت ونظرت إليه قائلة :

. سيف!! تنبهت وتراجعت وأدمعت عيناها وهى تقدم اعتذارها.

. آسفة يا أونكل نديم .. تصور افتكرتك سيف!! عزفك جميل .. ياه

كانت أيام جميلة.

. حتفضل الأيام جميلة لأن اللي خلقها ربنا سبحانه وتعالي فلازم تكون حلوه وسعيدة والدنيا مش بتقف عند حد .. الحياة ماشية.

أطلت نعيمة عليهما لتخبرهما بأن التليفون يطلب السيدة، غادرها نديم ليري من المتصل، لقد كان صاحب العمارة والذي أعاد تقديم عزاءه وتحرج من نديم وهو يخبره بأنه في احتياج لشقة السيدة ثريا نظراً لأنها فقدت حق الإقامة وليس لديها أبناء!!

طالبه نديم ببعض الوقت حتى يعرض عليها الأمر نظراً لحالتها الصحية، أعاد الرجل اعتذاره وأنه ليس في عجلة من أمره وانتهت المكالمة جلس نديم بجوار التليفون يفكر فيما يخبئه القدر لتلك الصغيرة وماذا هو فاعل حيال ذلك؟ هل يتركها هكذا أو ماذا يفعل؟ لم يجد الحل الأمثل وقرر ترك هذا الموضوع جانبا على أن يفكر فيه بروية وهدوء حتى يعثر علي الحل الأمثل.

إستأذن من ثريا بأنه سيعودها بعد قليل، غادر الشقة متوجها إلي شقته بينما أقبلت عليها نعيمة لتزف إليها المكالمة التي سمعتها وتفهمتها، بكت الصغيرة والخادمة تعمل جاهدة علي تهدئتها.

طلبت من الخادمة أن تُعد لها كوبا من الشاي، بعد إنصرافها جلست تفكر فيما حدث لها متسائلة : العام الماضي أثناء مرض سيف أرســـل إليّ وريث عمارة الزيتون يطالبني فيها بإخلاء الشقة التي كان والدي رحمه الله قد إستأجرها من والده منذ خمسين١٠١عاما والسبب في هذا إنني تزوجت

وأقمت بمصر الجديدة علي العنوان الذي أرسل عليه الإنذار مما يثبت إنني ليس لي الحق بأن أحتفظ بالشقة القديمة، طيب سيف من خاطري وطلب مني أن أتوجه لهذا الوريث وأن أسلمه مفتاح الشقة وعقد الإيجار القديم وأحصل منه علي ما يفيد ذلك وبتنازله عن القضية.

كنت مترددة فتلك الشقة بها رصيد ذكرياتي الجميلة مع والداي قبل أن ينتقلا إلي رحاب الله ثم انتقلت للعيش تحت ضغط الذل والإهانة مع أشقائي ورغم هذا عشت بشقة العائلة خلال الأيام الأخيرة قبل زواجي علي أحسن ما يكون خاصة أن سحر إبنة خالتي كانت تقيم معي ثم سافرت في العام التالي لبعثة علمية بالخارج.

حينما قمت علي تنفيذ إقتراح سيف بإعادة الشقة إلي صاحبها إستقبلني الرجل بترحاب مقدما إعتذاره لي وأخبرني بأن من نبهه بأنني قد تزوجت وأقيم مع زوجي بمصر الجديدة هي راويــة زوجة شقيقي مصطفي حيث أقبلت علي زيارة أسرته في أحد الأيام وأخبرتهم بهذا ولولا ذلك لما قمت برفع قضية طرد، ثم أعاد رجاءه بأنكِ لو كنتِ في إحتياج للشقة فعودي كما أتيت وسوف أتنازل من باكر عن القضية.

غادرت العمارة وأنا في دهشة مما تقوم به راوية وما الدافع فيما قامت به ولأي غرض والفائدة من وراء هذا ولو حدث نزاع مع زوجي أعقبه إنفصال فلن أستطيع أن أعود لشقتي، إن راوية السبب في كل هذا.

جلست ثريا بعض الوقت بعد تلك الإستفسارات التي ألمت بعقلها ولم تعثر لها علي أي إجابة مقنعة ثم١٠٢انهضت من رقدتها فقد أقترب الخطر

أكثر حيث لا معاش لسيف لأنه كان يعمل بشركة هندسية خاصة ولم يستمر عمله بها لأكثر من ثمان سنوات. وليس لـــها معاش وستحاول الحصول علي معاش والدها وعليـــها تقديم المستندات بوفاة الزوج وأنها تركت عملها.

حصلت علي حمام مُنعش وقررت أنه لابد أن تتشجع وتقاوم هذا الحزن المترامي عليها يوما بعد يوم، جلست فى التراس أمام الشقة وبعد قليل أقبل نديم باش الوجه حينما شاهدها علي هذا الحال. أنحني عليها مقبلاً رأسها مثل ما كان يفعل.

أسعدها هذا وتحاور الإثنان بحديث هادئ، أعدت نعيمة طعام الغداء فطلبت منها ثريا بأن تحضره إلى مكان جلوسها مع نديم في التراس، بعد تناولهما الطعام وبعد أن أنتهت نعيمة من مهامها طلبت من سيدتها الإذن بالعودة إلي منزلها تلك الليلة لترعي شئون أمها علي أن تعودها صباح الغد.

أصبح نديم وثريا يجلسان بمفردهما، نظرت ثريا إلي نديم نظرات لم يعتدها من قبل وحالها يخبره بأنها تفكر فى شيء هام ومضطربة من هذا الخبر الخفي التى تبغي طرحه عليه، شجعها علي أن تتفوه بما تفكر فيه، اضطربت قليلاً ثم تشجعت.

. أونكل نديم . هل تقبل أن تكون والدي؟

أسعده حديثها وظهرت البسمة الوضاءة علي جبينه وأخبرها بأنه منذ تعارفهما وهو يعتبرها ابنته التي لم ينجبها، ظهرت معالم الارتياح علي وجهها.

. أونكل نديم . هل تقبل أن تصبح زوجي؟

وضعت يدها علي وجهها بعد أن١٠٣أطلقت هذا السؤال وغادرت المكان

مسرعة إلي شقتها باكية وتتفوه بكلمات حزينة مؤلمة.

***

صمت الرجل ولم يتأكد من قولها؟ ردد بداخله: هل قالت أنها راغبة فى الزواج منه أو أنها قالت شيئا آخر؟ ظل صامتاً وجلس ساكنا ولم يتمكن من الوصول إلي أي قرار محدد، فكر بروية ومازال يسترجع أحوالها.

لقد أصبحت دون أي عائد مادي سوى إيجار قطعة الأرض التى تركها المرحوم سيف كما أن صاحب العمارة راغب فى إخلاء الشقة وهذا حقه القانوني وليس لديها رجل يشد من أزرها.

إذاً فهى في احتياج إلي رجل، أي إلي زوج ولكن هل هو الزوج المناسب لهذه الصغيرة؟ لا أعتقد هذا فأنا أكبرها بعدة أعوام بل أن عمري ضعف عمرها وكيف يستقيم مثل هذا الأمر كما انها طالبتني بأن أصبح والدها وقد وضعت هذا الأمر نُصب عيني منذ تعارفت عليها، لقد أصبح الوضع سيئاً وكيف تستقبل عائلتها نبأ زواجي بها؟

غادر المكان متوتراً مُضطربا فهو راغب فى معاونتها ولكن ليس بهذه الكيفية، فقد كره الزواج والنساء منذ زواجه المأساوي من زوجته شهيرة راغباً بأن يظل أعزب علي هذا الوضع وهو مستعد لأن يرعاها طوال حياته، توقف قليلاً يفكر:

لكنها بدون رجل ودخوله وخروجه عليها ليس من الأخلاق الطيبة بل والبعيدة عن عادات الإسلام، يجب أن يفكر بمنطق الناس وليس بمنطق هواه وأحلامه البريئة فالناس تتقول١٠٤علي كل إنسان حتى زوجة الرسول

محمد صلي الله عليه وسلم تقول الناس عليها ولهذا فيجب عليه أن يبتعد عن مواطن الشبهات وأن يقوم علي حمايتها والمحافظة عليها وما شعور شابٌ راغبٌ فى التقدم إليها وعلم أن رجلاً غريباً كان يدخل عليها مخدعها ويغادره فى أي وقت سواء ليلا أو نهارا دون وجود إنسان آخر حتى زوجة شقيقها وهي ابنة خالتها أتهمتهما ظلماً وبهتانا بأنهما علي علاقة ما.

غادر المكان متجهاً إلي المسجد المجاور لعل الله يرسل له بصيص من نور يهديه إلي الطريق السليم ليظل محافظاً على صغيرته دون أن تلوكها الألسن فيكفيها ما ألم بها، إنها قسوة الحياة وُظلم الإنسان والتي اجتمعتا على هذا البرعم الصغير فأصابه الهزال والحزن، دخل إلي المسجد وصلي ركعتي التحية وجلس يطالع فى المصحف حتى يحين موعد صلاة المغرب.

***

بداخل شقة ثريا اندفعت الصغيرة باكية حزينة علي حالها بأن ألقت بحيائها جانبا وعرضت نفسها على هذا الرجل المتقدم في العمر وأن يرتبط بها وهى لم تعلم من قبل بأن سيدة ما عرضت نفسها على رجل سوى السيدة خديجة زوجة الرسول الكريم ولكنها عرضته بطريقة رقيقة بأن كلفت صديقتها بهذا كما إنها تخيرت سيد البشرية محمد بن عبدالله وما لنا والرسول وزوجته خديجة فالفارق شاسع.

ماذا أفعل وكيف أتجه؟ أنا راغبة فى هذا الرجل فهو رقيق المشاعر وقد تجاورنا لأكثر من خمس سنوات كان فيها نعم الأب وخير شقيق ورفيق لي ولحبيبي الراحل سيف، هل أضمن١٠٥أن أعثر على شخص مثله وفي مثل

عمري؟ لا أعتقد ذلك ومن سيقبل الاقتران بى وهو يعلم باننى أرمله أي سبق لها الزواج وتلك هي أحوال النساء في مصر بأن من سبق لها الزواج وانفصلت عن زوجها سواء بالطلاق أو بالوفاة أنخفض ميزانها بين النساء خاصة إنني لم أنجب وأنا أعلم بأن المرحوم سيف كانت تقابله بعض المشاكل التي أثرت علي الإنجاب ولم أتحدث بها لأي كائن من كان.

كيف التصرف؟ ماذا أفعل وما قول هذا الرجل الرقيق عني الآن؟ بالتأكيد سوف ينظر إلي نظرة أقل احتراماً من السابق ولم يقبل عليّ كما كان يفعل وعلم بأنني راغبة به ولكنني أعتقد بأن هذا حق لي كما هو حق للرجال الرجال لهم حق الاختيار فلماذا لا يكون هذا الحق مكفولا للنساء أيضاً ؟ أنه لشيء صعب على الفتاة أو السيدة أن تظل قابعة فى منزلها تعرض عليها العروض ترفض هذا وتوافق كارهة على ذاك.

***

بعد أن أنتهي نديم من صلاته أقبل على شيخ المسجد راغباً فى أخذ رأيه فى مشكلة تقابله، انتحى به الشيخ جانبا وبعد أن تأكد نديم أنه لا يوجد أحد من المصلين قريبا منه فاتح الرجل بهذا الحديث:

. مولانا. ابنتي ثريا جاءت اليوم وعرضت علي رغبتها بالزواج منى. ما رأيك؟ نظر إليه الرجل نظرة غريبة أرعبته وشعر بأن الرجل كاد أن يدق عنقه لولا وجودهما بداخل المسجد، وقف الشيخ مغادراً المكان لاعنا هذا الزمن الأغبر قائلاً "بئس ما قلت". لحق به نديم محاولاً إفهامه بما يود ولكن الرجل نفض عباءته من يده محاولاً مغادرة١٠٦المسجد، أقبل زميلّ للشيخ لما لاحظه

من توتر بين الاثنين فأقترب منهما طالباً منهما الهدوء متسائلاً ماذا ألم بالشيخ الهادئ لأن يتصرف هكذا.

نظر إليه الشيخ مشيراً جهة نديم طالبا منه عرض سؤاله على زميله، شعر نديم بأنه قد أخطأ عرض قضيته فطلب منهما الجلوس وشرح لهما كل شيء بالتفصيل، هدأت نفس الشيخ مبتسماً ناظراً إلي نديم قائلاً: هكذا يعرض السؤال.

أخي لا مانع من هذا الزواج بل من الواجب عليك كرجل مسلم أن ترتبط بها وأنها لسيدة مؤمنه أن تبغي الحلال راغبة فى تأمين نفسها وأن تعصمها من الزلل وتحميها من القيل والقال فهذا شيء عظيم، بارك الله لكما هذا الزواج.

عاد نديم مُسرعا إلي شقة ثريا وطرق بابها عـدة طرقات خفيفة فسمع صوتها باكيا حزينا، أقبل عليها بوجه باش وأقترب منها وأمسك بيدها مقبلاً على غير عادته قائلاً لها:

. ثريا : أنا طالب إيدك. توافقي علي زواجي منكِ؟ نظرت إليه وتبدلت الدموع الحزن بدموع الفرح اللامعة والتى تُعطى المحب إحساسا بالســـعادة والفرحة ابتسمت له ابتسامتها التى كان يسعد بها بأن عصفوراًيقف على غصن شجرة مغرداً . لم تجبه ولكن الإجابة جاءت من قلبها الفرح واقتربت منه وهى مازالت جالسة ووضعت يديها خلف رقبته ضاحكة متسائلة :

. أوافق على جوازي منك؟

أبتعد عنها قليلاً لينظر إليها١٠٧نظرة الحبيب للحبيبة ونظرة العريس

لعروسه مردداً :

. أنتِ أحلي حاجه عرفتها فى الخمس سنين الأخيرة، بس كنت مرتب نفسي أنى أونكل وبس ولسه ما وصلتش لمرحلة البكالوريوس، يا دوب لسه فى إبتدائي!!

أضحكها تعبيره وأمسك يديها مقبلاً يدا بعد الأخرى مخبراً إياها لقد مضي علي وفاة سيف شهران وبعد أقل من ثلاثة أشهر تنتهي عدتك وسوف نتزوج وخلال الفترة القادمة سوف أقابل أشقائك وأتقدم إليهم طالبــاً نسبهم في صغيرتهم ثريا، رقصت فرحاً وهى جالسة وأسعدها هذا ثم عاد الفرح خامداً ونظرت إليه متسائلة بعيون دامعة.

. ده مش يبقى حرام وسيف يقول عليا أنى مش حافظت على عهده؟

أشار إليها بأنه سيعودها بعد دقائق، إختفي عدة دقائق ثم عاد وناولها خطاب سيف الثانى وقرأته ودمعت عيناها من حُبه وإخلاصه وقد غادرها هذا الهاجس بعدم الأمانة والإخلاص.

***

استعادت ثريا قواها نسبيا وغادرت الفراش واتجهت للجلوس برفقة نديم فى المنطقة المعدة أمام الشقتين وتساءلت ما هى الإجراءات التي سوف تقوم بها من أجل ما عرضته عليّ بالزواج؟ أجابها بأنه سوف يتصل بشقيقها مصطفي لتحديد موعداً للقائه وسوف أطلب منه يدك رسميا.

أسعدها هذا وهى تنظر إليه بأنها قد وُفقت فى العثور على رجل تستند عليه وتحتمي بظله يؤنس وحدتها١٠٨ويدفئ عشها الذي داهمته برودة

رحيل الزوج الشاب وسوف تجد من يقوم علي شأنها بعد أن أخبرتها الخادمة بأن صاحب العمارة راغبٌ بأن تتركي له الشقة حيث أن الزوج قد لاقي ربه وأنها ليست حاضنه فلم ترزق بأبناء، تذكرت الأبناء وشعرت بسعادة خفية فاحتفظت بهدوئها خشية أن يلحظ سعادتها هذا الرجل الهادئ الرزين الجالس أمامها.

تتساءل: هل يمكن أن نرزق بأطفال؟ وهل يقبل أن ينجب فى هذا العمر المتأخر نسبياً ويُصبح مثل والدها الذي أنجبها بعد أن بلغ به الكبر ولا قي ربه وهى لم تبلغ التاسعة من عمرها ثم تلته أمها بعد هذا بعدة سنوات وأصبحت وحيدة تقابل قسوة الإنسان وغدر الزمان، أزاحت تلك الخواطر جانباً حتى لا تؤثر على سعادتها التي انتزعتها من بين صخور الأحزان الصلبة.

اليوم التالي أتصل نديم بشقيقها مصطفي ودُهش الشقيق من هذا الاتصال فقد قرر مع إخوته بأنه لا اتصال بينهم وبين شقيقتهم التـــي تسير على هواها حيث أخبرته زوجته راوية بهذا وما شاهدته رؤيا العين وما سمعته بأذنها.

سمع حديث نديم وأجابه بأن يتركه بضعة أيام ليعرض الأمر علي أشقائها، بعد إنتهاء المحادثة تساءلت زوجته عن سبب اتصال هذا الرجل به والذي أهانها، أجابها بما أخبره به نديم، ابتسمت ابتسامة الشيطان فقد تأكد لها بأنهما على علاقة مشينة سويا وهذه العلاقة بدت منذ فترة طويلة قبل وفاة الزوج المخدوع واحتمال أنهما٩٠اتسببا فى وفاته طالبة منه إبلاغ

النيابة للتحقيق فى أسباب وفاة سيف.

تركها مغادراً الحجرة وأتصل بشقيقيه اللذين أبديا مرونة بأنه لا مانع لديهما بأن يوافقا على طلبه هذا طالما شقيقتهم راغبة به حتى نتخلص من الأقاويل التي بدأت نسائهم فى إطلاقها على صغيرتهم.

بعد عدة أيام اتصل مصطفي تليفونيا بنديم وأخبره الخبر الذي إستقبله بكل سعادة ونفس طيبة وكان يتمناه، أسرع نديم كالطفل الذي عثر علي قطعة حلوي ليخبر صغيرته ثريا التى وقفت تغرد سعيدة وأشارت إليه بإحضار آلة القانون وجلسا أمام شقتها يعزفان بعض الألحان الراقصة الفرحة.

أمضيا ليلة سعيدة بكل المقاييس، فكل منهما شعر بأنه أقترب من الآخر وأن كل واحد منهما أصبح سنداً لصديقه وسوف تمضي الأسابيع المقبلة ويعلن الخبر وتنتقل إلي شـــقته ويقوم نديم بتسليم شـقتها إلى مالك العمارة الذي أسعده هذا بأن حقه سوف يصله دون محاكم وما يخلفه هذا من ضيق ومشاكل بين الناس وما المانع بأن ينتظر ثلاثة أشهر أخرى حتى تتزوج وليس من المعقول أن يطالبها بالرحيل الآن.

كل هذا نقله نديم إلى حبيبته ثريا وهما جالسين، أطمأنت الآن بأنها باقية بشقتها حتى تنتقل الى شقة زوجها، لن تسير أكثر من خمسة أمتار وتقيم كزوجة بالشقة المقابلة.

بعد مُضي أسبوع إتصل إبن عم والد سيف من القرية يخبر نديم بأنه يرغب تسليم حديقة المشمش للسيدة ثريا ١١٠أرملة المرحوم سيف كما يسلمها ثمن

محصول الحديقة عن هذا العام حيث إنتهي من الإتفاق مع أحد تجار الفاكهة علي ثمن المحصول الجديد وحصل منه علي الثمن وهو راغب بان يسلمه لها حيث لا يعلم ما تخبئه الأقدار كما يرغب بأن يوضح لها الأسلوب الأمثل في التعامل مع تجار حدائق الفاكهة حتي لا يبخسوا ثمن الحديقة والأشجار المنتجة.

أسعدت تلك المكالمة التليفونية ثريا بعد أن نقلها إليها نديم وحددا موعدا للرجل حيث أقبل باش الوجه بعد أن شعر بأنه تطهر من دين عليه لم يسده لأصحابه الأصليين لكنه قام بسداده للورثة وهي ثريا.

كان الحديث طويلا متشعبا وفيه إتفق الرجل مع كلّ من ثريا ونديم علي أن يقوما بزيارة حديقة المشمش بالبلدة عدة مرات كي يتفهما الأسلوب الأمثل لرعايتها وكيفية الإتفاق علي بيع المحصول كل عام.

بعد أن غادر الرجل المنزل عاد نديم ونظرت ثريا إلي المبلغ المسلم لها ثمنا لمحصول هذا العام، حمدت الله فقد كان المبلغ التي تسلمته غير متوقع.

لم يمض شهرا آخر علي تلك النفحة المالية إلا وجاء الخبر المفرح لنديم ولبعض المصريين بصدور قانون تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر بالأراضي الزراعية والذى يُعطى الحق للملاك بعودة أراضيهم إليهم مرة ثانية بعد أن ظلت عقوداً تحت رحمة واستغلال المستأجرين في مقابل مبالغ ضئيلة لا تستطيع الحصول عليها من المستأجر الظالم الذي تعود علي الأخذ دون العطاء.

عادت الخمسون فدانا من١١١أجود الأراضي الزراعية إلي صاحبها

نديم وبالتالي عاد إلي أرضة التي لم يكن في الإستطاعة أن يشاهدها وهي مستأجرة وأصبح الفلاحون يطلبون وده بعد أن كانوا ينهرونه حين التوجه إليهم طالبا بحقه المهضوم من القروش التى قررتها الدولة كإيجار للأرض الزراعية.

شاهد مساحة الأرض المترامية الأطراف مما دفعه لأن يعرض على ثريا التوجه والإقامة بها والإشراف على زراعتها، أسعدها هذا بأن تحيا وتعيش بين المزارع والخضرة والطيور وتربية الحيوانات وتستنشق هواءً نقيا خالي من السموم.

مضت شهور ثلاث وتزوج الحبيبان وما أن دخلت ثريا إلي شقة نديم كعروس حتي جاءها شعور بأن تلك الشقة لم تشـــــاهدها من قبل رغم أنها شاهدتها عدة مرات ولكن كابنة له وهو يناديها بهذا اللقب الرائع علي قلبها.

احتضنته كأنها راغبة بالاختباء بين ضلوعه للحماية خوفاً من ضربات القدر وغدر الزمن، أقبل عليها حانيا مثل الأب الحاني علي ابنته واحتضنها كحبيب مشتاق إلي حبيبته وطفرت من عيونهما الدموع التي تنبأ بمستقبل مشرق لهما.

بعد مُضي عدة أشهر سافر الزوجان إلي عزبة سيف حيث إلتقي بهم إبن عم والده وتجول معهم بحديقة فاكهة المشمش وإنبهروا من حجم الأشجار والحديقة، بدا الرجل يوضح لهما أسلوب رعاية الأشجار ومواعيد الري والتسميد ورش بعض المبيدات المضادة لبعض الحشرات الضارة لهذا النوع من الأشجار.

جلسوا سويا قبل تناول طعام الغداء وشرح لهم الأسلوب الذي يتبعه مع تجار المحصول، أوضح الرجل كل هذا لهم وأنه راغب به حتي إذا جاء أجله يكون قد قام بأداء واجب إنساني نحو أقرباء له لم يهتم بهم أثناء حياتهم.

كان إستقبال أفراد أسرة الرجل طيبا رقيقا حانيا علي الضيفان وقدمت سيدات الأسرة التهنئة للزوجان بعد علمهن بتمام الزواج منذ فترة قصيرة بل أثنين علي فكر وإختيار ثريا حتي لا تظل تحيا بمفردها أو تتعرض لبعض المضايقات والقيل والقال.

مضى على زواجهما ستة أشهر ووصل إليهما خبر مرض شقيقها مصطفى فأسرعت إليه باكية فهو البديل عن والدها وهو الذي تألم لحـــالها وهى صغيرة ورافقها إلي أحد المحلات لشراء ما تحتاجه وقتها، شاهدت شريطاً من الصور والمشاعر يمر من أمامها، مجرد وصولها إلي منزله شاهدته نائما بسريره وقد بدا عليه الضعف والهزال فانعكس هذا عليها بالحزن والبؤس وبدا هذا واضحا علي كل من بالمنزل فغادرت زوجته الخيلاء والعظمة التي كانت تشعر بها لشعورها بالتفوق لما تتميز به من جمال وفتنة وصحة وحيوية، كل هذا زال وأستبدل بالوهن والتجاعيد والحزن على الزوج الذي قارب أن يلفظ أنفاسه نظراً لعجز الأطباء عن علاجه.

غادرت ثريا المنزل حزينة وهى تفكر ماذا لو قابل شقيقها ربه ولم تكن قد ارتبطت بنديم؟ ماذا سيصبح عليه حالها؟ لم تشعر بطمأنينة القلب، راودتها بعض المشاعر والأحاسيس بأنها كانت ثاقبة الفكر وأرادت أن يُصبح لها أنيابا ومخالب فلا يمكنها١١٣العيش كحمامة وديعة بين أسراب

الصقور والنسور الجارحة، تساءلت:

لماذا أشاهد البعض من فتيات اليوم يرفضن الزواج كلما تقدم إليهن شاب وفى كل مرة يتقدم أحد الشباب راغباً بها تفند لأسرتها أسباباً جديدة للرفض، ماذا سيصبح عليه حالهن بعد فقد الأب الحنون والأم العطوفة؟

انتقل شقيقها مصطفى إلي جوار ربه ونعته ثريا بدموع غزيرة وتورم جفنيها، لقد فقدت أعز شخصين فى عام واحد، الزوج الشاب سيف وشقيقها الأكبر مصطفي الذي هو في مقام والدها وشـــاهدت حالة الحزن على وجه زوجته التي توارت خلف أحزانها وأصبح صوتها أنيناً ضعيفاً واهناً وغادرتها القوة والعنفوان وإطلاق الاتهامات على الآخرين، نظرت إليها متسائلة وهي تردد بداخلها: هل يظل الإنسان أعمى البصيرة حتى يصطدم بموقف صعب؟ أليس من الأجدر به أن يفكر ويرتدع ويسير على نهج القرآن الذي هبط علينا من السماء لكى يصبح قانونا سماويا لتعامل الناس بعضهم مع بعض.

أثناء أيام الأحزان بدت عليها الفرحة مقبلة، فقد شعرت ببوادر الحمل والتى كادت أن تدفع بها لتطير فرحاً ولكنها تماسكت حتى ترى أثر هذا على نديم حتى لا يغضب منها وبمجرد أن علم بهذا الخبر حتى هتف صارخاً معبراً عن سعادته مقبلا إياها بكل حب وشوق وعاطفة قائلاً :

أخيراً سأشاهد ابني الذي سيعوضني عن فقدي لابنتي التى قاربت على العشرين عاما ثم تساءل بدهشة: هل ما أشاهده وأشعر به الآن هو ترجمة بأن الحياة فى قلب الحقيقة أم أن الحقيقة في قلب الحياة؟

تحملت ثريا شهور الحمل١١٤الطويلة شبه وحيدة حيث كان نديم

خلال ذلك مشغولا بأرضه بالبحيرة والتي تسلمها من الفلاحين الذي قاموا علي زراعتها ونهب خيرها عقودا طويلة بعد قيام ثورة يوليو، كانت الفرحة مستمرة لديها وهي تشاهد وتشعر بأن نضارة وجهها وحيويتها مازالت كسابق عهدها إن لم تزد للأحسن عن سابق هذا الزمن.

كانت تشعر بأن نديم لم يعد أباها فقط فقد أصبح إبنا لها فهي تنتظر قدومه حتي ترعاه مقدمة له كل عناية ورعاية، إنتقل هذا الشعور الرقيق إلي نديم أيضا حيث كان دائم التفكير في زوجته الحبيبة ودائماً ما يردد بأن الله كافئه لصبره علي الإبتلاء الذي حدث له من زوجته السابقة، شعر بأن ثريا نسمة من السماء هبطت علي الأرض لترعي سيف ضيف الدنيا ونديم الذي ظلم من أم إبنته وحرم من حقه في رعايتها والإشراف عليها.

أنجبت ثريا طفلاً جميلاً حمل صفات الأب والأم وأصبح هو نبراس السعادة والهناء وسُمع صوته بكائه الذي ملأ أرجاء الشقة كأنها قطعة موسيقية من التى كانت تقوم بعزفها مع فرقتها، بدا لهما أن السماء قد أشرقت عليهما بالبهجة والمستقبل الناصع لتودع أعوام الحزن والشقاء التي استمرت لفترة طويلة.

***

تبادل الزوجان الرأى والمشورة في الإسم المقترح علي وليدهما حيث إقترح نديم أن يطلق عليه إسم الراحل سيف بينما رفضته ثريا متشائمة فما حدث للراحل سيف كان كثيراً سواء من فقد والديه فى الحادث الذي أودي بحياتهما أو من إصابته بالشلل١١٥ومن تلوث دمائه " بفيرس c "

الخطير الذي أودى بحياته.

أخيرا توصلا إلي الاسم المرتقب، أحمد، و كما قال نديم لزوجته: هذا الاسم يذكرنا بحمدنا لله عز وجل علي ما منحه لنا من نعم، أصبح هذا الاسم يتردد نداءه وصداه بداخل شقتهم الجميلة.

أتاك الربيـع

أشرقت أنوار السعادة على الزوجين وفاض الخير فبعد أن تسلم نديم أطيانه الزراعية تبدل حال المزارعين الرافضين لوجوده فى السابق وأصبحوا يخطبون وده ورضاه راغبين بإستئجار بعض الأفدنة من أرضه الزراعية والتي كانت تتميز بالخصوبة وإرتفاع غلة الفدان بها مما يعود علي الفلاح بالخير الوفير، استعد نديم للإنتقال إلي أرضه وهناك شاهد لهفة الأهل والمعارف على اللقاء به فقد أصبح ميسور الحال يمتلك أكبر مساحة زراعية بالمنطقة ومن أجود الأراضي.

بخبرته كمهندس استطاع أن يقيم فيلا أنيقة مكونة من دورين وسط زراعاته الضخمة وبعد أن انتهي من تشييدها جاءت ثريا وما أن شاهدتها حتى أشادت بعبقريته فى التصميم والتنفيذ، استأجر لها سيدة لديها دراية بالأعمال المنزلية لتقدم يد المساعدة لها بينما تفرغ هو للإشراف علي أرضه ومن أجل هذا الغرض استأجر العديد من الفلاحين عاقداً العزم بألا يرتكب خطأ والده بتأجير الأرض لآخرين للقيام بزراعتها.

ترعرع أحمد نديم فى تلك البيئة النظيفة الخالية من الهواء الفاسد الناتج عن تلوث البيئة فى العديد من أحياء القاهرة سواء للصناعة أو لسوء تعامل الناس مع الطبيعة ولهذا لم يتعرض للأمراض التي كانت تقابل الصغار فى تلك المناطق الضارة علي الصحة.

تعدى الطفل الأربعة أعوام نهل خلالها الزوجان من الحب والإخلاص والتفاني فى العمل بقطعة الأرض مما أنعكس على إنتاجها الذي أزداد وتحسن ونما وغزته أنشطة أخرى خاصة حلب الأبقار وتجارة الألبان ومشاريع نحل العسل، كما تنوع إنتاج الأرض خاصة فى الخضروات التى كان يقوم بتصديرها إلي القاهرة للأحياء الراقية بمصر الجديدة ومدينة نصر والدقي والمهندسين والمعادى.

فى اتصال تليفوني بين ثريا وشقيقها الطبيب أفادها بأن راوية ابنة خالتها وأرملة شقيقها مصطفى تعانى من مرض شديد يصعب علاجه والوفاة نهايته المحتومة، طلب منها زيارتها وعدم التعامل معها كما كانت تتعامل معكِ، سمعت حديثه بقلب ناصع أبيض وأخبرته بأنها سوف تتوجه لزيارتها قريبا.

أخبرت ثريا زوجها بما أسره شقيقها من مرض راوية أرملة شقيقها، عقدا الاثنان العزم على التوجه لزيارتها مساء يوم الخميس القادم ولهذا طلب نديم من سائقه الخاص بأن يعد السيارة لسفريه طويلة حتى القاهرة، اتصلت ثريا بابنة شقيقها (هبـــة) لتخبرها بموعد زيارة أمها المريضة طالبة منها التواجد حتى تشاهدها هى وزوجها.

كان من المتعارف عليه وسط العائلة بأن هبة إبنة شقيقها قد ارتبطت بإبن خالتها منذ عامين بعد تخرجها من الجامعة مباشرة رغم معارضة والدها لهذا ونظراً لما كانت تقاسيه راوية سواء من مرضها أو إصابة أبنها الوحيد يوسف بضعف بصري شديد لا يمكن علاجه.

لقد أنجبته وهي حاملة لهذا المرض الذي ينتج عادة من زواج الأقارب فتحمل الأم المرض وتنقله لأبنائها الذكور، أصبح يوسف عاجزاً غير قادراً على مراعاة نفسه وقد بلغ الرابعة عشر من عمره وكان يستعين على سيره بعصا بيضاء تدل على أنه من مكفوفي البصر ويحتاج عونا.

فى القاهرة وفى منزل شقيقها الراحل والأب البديل مصطفى التقت ثريا بزوجة شقيقها وقد هالها ما وصل عليه حالها من أمراض قاتلة وأورام أمسكت بخناقها ، بكت راوية وهى تخبر ثريا بحالها ومن إهمال أبنتها "هبة" لها وعدم إشرافها على شقيقها الكفيف.

طيبت ثريا من خاطرها ولكن راوية نظرت إليها طالبة منها بكل ضعف وذل الإنسان لأخيه الإنسان بأن ترعى أبن شقيقها "يوسف" بعد وفاتها، توترت ثريا لهذا الخبر طالبة منها أن تفكر فى أمرها وهى علي أتم استعداد لأن تلبي لها كل ما تطلبه حتى لو كانت راغبة به منذ الآن بأن تقوم برعايته ، شكرتها راوية ومازالت باكيه وتساءلت ثريا لماذا تبكي؟ أجابت راوية:

أبكى سوء العاقبة ولن أنسى ما قالته خالتي أمك بأن نعمل علي رعايتك ونحافظ عليك وأنها سوف تدعو الله بأن ينتقم لمن يخالف هذا ويعذب صغيرتها ثريا، ازداد بكاءها وحضرت أبنتها "هبة" مع تخلف زوجها الذي كان ينتظرها على المقهي القريب من المنزل، شاهدت ثريا ابنة شقيقها وسوء تعاملها مع أمها بل مع شقيقها يوسف الذي كان يتحسس طريق سيره بعصا.

كان واضحا سوء تعامل "هبة" مع كلّ من أمـــها وشقيقها وكانت الأنانية

من صفاتها وحين عنفتها ثريا علـى سلوكها هذا لم تأبه بها وغادرت المنزل،

طلبت ثريا من راوية بألا تحزن علي سوء خلق أبنتها ولكن الأم بكت بشدة وأنها ليست حزينة على أبنتها "هبة" بل حزينة على سوء خُلقها هى وقد وضعت هذا السلوك فى أبنتي، فلو عودتها وربيتها منذ الصغر على حب ورعاية الأقارب لما قامت بهذا الفعل ثم نظرت إلي ثريا تحدثها بعيون باكية منتفخة من كثرة ما بها من آلام.

لو شاهدتني هبة وأنا أرعاكِ لفعلت نفس الفعل مع شقيقها يوسف لكنها شاهدتني وسمعتني وأنا أسبك وأسيء معاملتك.

عاد الزوجان وصغيرهما إلى العزبة بمنطقة إيتاي البارود بالبحيرة، أثناء الطريق لم يغادر ذهن "ثريا" صورة زوجة أخيها الراحل وهى تعيد وتقارن بين راوية الآن وراوية منذ خمسة عشر عاما وهى تتذكر كيف كانت راوية تطالبها بإحضار المشروبات والأطعمة لشقيقاتها أثناء زيارتهن لمنزلها بل وتتندر عليها ويعقب هذا الضحك بصوت مرتفع من شقيقاتها بينما هى تذوب خجلاً وتعكف في حجرتها الضيقة التى جعلتها مخزنا لمهملات الشقة.

طفرت الدموع من عينيها وتذكرت حين أصطحبها شقيقها إلى أحد المحلات الكبرى طالباً من العاملات إحضار كل ما ترغبه صغيرته ثريا وقد أسرعت العاملات بإحضار كل ما كانت ترغبه وبعد أن شعر شقيقها بأنها قد أكتفت بما جاءت لشرائه أصطحبها لأحد المحلات وتناولا طـعاماً قيماً فاخراً ثم أعقبه التوجه لمحل للمشروبات وكان يضاحكها حتي أستطاع أن يخرجها من حزنها.

مازالت ذكريات شقيقها مسيطرة علي عليها وبدأت تستعيد ما كان بينهما، بعد أن عُدت إلي الشقة سألت شقيقي لماذا هذا البكاء الصامت فى عينيك؟ يجيبني بعد أن جذبنى وأجلسني على ساقيه وقبلني وهو يربت على كتفي. أسمعي مني صغيرتي الحبيبة.

حينما كان والدنا يعمل مستشاراً وله من الوضع الإجتماعى العالي حيث خصصت له سيارة بسائق كنت أشاهده قادماً يتبعه سائقه حاملاً شنط من التى تخص المحلات وصناديق كرتون ويضعها أمامنها أنا وشقيقيك حمدي وشوقي وتقوم أمنا بفتح كل تلك الشنط والصناديق فنشاهد أن والدنا قد أحضر لنا كل ما نرغبه من ملابس وأشياء تخصنا وبأعداد كبيرة.

ولم يترك لنا شيء إلا واحضره حتى المشط الخاص بتسريح الشعر كل شيء وبأعداد، تنكرت هذا وأنا أشاهد ملابسك البالية وقد حُرمت نعمة الأمان والعطف وأصبحت أنا مثل الذين يتحدث عنهم القرآن يأكلون مال اليتيم.

نحصل على معاشك الشهري من والدنا والذي يخصك وننفقه فى أمور أخرى، ثقي بأنني لم أكن أعلم ولكن العقاب والوزر سوف يقع علىّ لأنني شقيقك ومسئول عنك ولهذا أردت ان أقلل الذنب الذي سوف ألقاه يوم لقاء ربى.

ما زالت ثريا تقطع طريق الذكريات كما تقطع السيارة طريقها ولكن بالعودة للماضي الذي هو عِبرة للحاضر والمستقبل، حينما جاءت الأخصائية

الاجتماعية للفصل الدراسي وأخبرتني برغبتها بالتوجه معها إلي مكتبها اضطربت لهذا وشعرت فى عيون البعض من زميلاتي نظرة أسي على حالي وعيون البعض الآخر ظهرت ابتسامة وضحكة لم تخرج إلى العلن بعد.

فى مكتب المسئولة أبله "فاطمة" رحمها الله فقد علمت بوفاتها من جريدة الأهرام، جلست بجواري دون وجود أحد بالمكتب واخبرتنى بأنها اتصلت بشقيقي طالبة حضوره وإذا لم يقم بواجبه فسوف تساعدك المدرسة بتقديم بعض الملابس التى ضاقت على زميلاتك وليس فى هذا عيب فيحدث هذا فى المنزل الواحد أن يحصل الصغير على ملابس من هو أكبر منه حجما.

ساد الصمت علي عقل وفكر ثريا ثم اندفعت دموعها الحارقة على خدها الرقيق وهي تستعيد ذكرياتها وكيف أن المسئولة حاولت تهدئتي وقبلتنى وهدهدت بيدها على ظهري وهي حزينة لحالي وأنا أشاهد كل زميلاتي بالفصل وهن يرتدين أحسن الملابس ويأتي العام الجديد بملابس جديدة للمدرسة ويتحدثن عن التنزه والتجول بوسط المدينة للتسوق والتوجه صيفاً إلى الشواطئ وانا لا حول لي ولا قوة.

أعود العام التالي بملابس العام السابق وكل ما أفعله بأن أقوم برتق ما تمزق أو ما تسلت خيوطه من ملابسي بحكم القدم، حتى الملابس الداخلية وملابس البيت كانت تعطيها لي زوجة أخي بعد أن بليت أو لرغبتها بشراء الجديد ولم تراع أني شابة وأنى أرغب فى ملابس جديدة خاصة الداخلية منها بل أنها كانت تأتى إلي حجرتي وتكور الملابس الراغبة فى التصدق بها عليّ وتدفعها فى وجهي قائلة" خدي١٢٢وعلي الله يتمر فيكِ".

مازالت تنهب خواطرها كما تنهب السيارة الطريق بينما نديم مشغولٌ بملاعبة طفله الذي خلد إلى نومه، تردد لن أعاملك يا راوية بمثل معاملتك لي فسوف أكون رحيمة ولقد تعلمتها من أبي رحمة الله عليه والذى كان يحكم بين الناس بعدل الله الرحمن الرحيم وبعدل القانون حيث كان يرثى لحال البعض ولهذا فقد كان نصيراً للفقراء والمستضعفين وأستطاع أن يوظف القانون وعمله لحماية الضعفاء والبسطاء منهم.

سوف أنهج نهج والدي وسوف أتبع سلوك زوجي نديم هذا الإنسان الرقيق الذي ظل يحمل ويساعد سيف أثناء توجه للحمام لقضاء حاجته أو أثناء الاستحمام بل حتى مصاحبته للتجول ببعض شوارع مصر الجديدة ولم يبخل عليه بشيء خاصة فى الأيام الأخيرة من حياته.

لقد ثقل وزنه وأصبح عبئا على نديم والذى كان يجلس بعد حمله يلتقط أنفاسه بصعوبة بل دفع جزءا من مصاريف العملية التى توفى سيف أثناءها ورفض أن يحصل على هذا المبلغ أن كل تلك الأعمال سوف تضاف إلي ميزان حسناته فى الدنيا والآخرة.

وصلت السيارة إلي العزبة وتوقف الموتور كما توقفت الذكريات وعاد إليها الهدوء والسكينة، بعد أن خلد الزوجان إلى نومهما مازالت عيون ثريا مُسهدة مما سمعته وما شاهدته خاصة من حال "يوسف" أبن شقيقها الذي يتخبط أثناء سيره ولابد له من أن يتحسس الطريق بعصاه ويتحسس موضع جلوســـه قبل الجـلوس بأن يتحسس المقعد بيده.

لاحظت أن يوسف أثناء الحديث لا ينظر إلي المتحدث إليه بعيونه لكن ينظر إليه بأذنيه بأن يتجه بهما إليه وبالتالي يصبح اتجاه العين فى غير الإتجاه الصحيح كما يحدث مع المبصرين. ولا يمكنه مشاهدة التلفزيون أو قراء الجريدة وكل ما يقوم به هو التعلم بطريقة "برايل" لتعليم المكفوفين لكنه صبي دمث الخلق حصل على قسط كبير من هدوء والده شقيقي الراحل.

سوف أهتم به، فهو مسكين يحتاج العون وأنا عمته ويحمل أسم والدي المرحوم المستشار فتحي عبدالدايم كما أن والده لو كان على قيد الحياة لتمنى منى أن أقف بجوار أبنه كما وقف بجواري وأنا لا أفترق عن الأيتام بأي حال من الأحوال بل أن حالتى كانت أسوأ منهم كما اخبرتنى المسئولة بالمدرسة.

***

مضت عدة أيام علي تلك الزيارة التي أثرت في ثريا تأثيراً سلبياً وحزنت علي ما شاهدته وشعرت بعد هذا بأنه وقع علي عاتقها واجب مقدس نحو ابن شقيقها يوسف، فى اتصال تليفوني من الدكتور حمدي شقيق ثريا ابلغها فيه بأن راوية أسلمت روحها منذ ساعة وكان يحدثها من شقتها حينما توجه إليها محاولاً تخفيف آلامها.

أخبرته ثريا بأنها قادمة بعد ثلاث ساعات وأسرعت برفقة زوجها والسائق الى القاهرة بعد أن تركا طفلهما أحمد مع العاملة لديهم ترعاه لحين عودتهما كما أوصتها "ثريا" بأن تعيد مراجعة الحجرة التى خصصتها لأبن شقيقها والذي سيعود معها بعد الانتهاء١٢٤من واجب العزاء.

كما توقعت "ثريا" من "هبة" ابنة شقيقها والتى شاهدت بعيونها كل قسوة الأشقاء على شقيقها يتيم الأب والأم معا وقد حرمه الله نعمة الإبصار مع صغر سنه، لم تهتم "ثريا" بمحاولة دفع ابنة شقيقها للاهتمام بمد يد المساعدة لشقيقها بل حينما شاهدت هبة عمتها "ثريا" قد أهملتها جاءتها تحدثها بأنه يجب عليها اصطحاب يوسف معها كما سبق ووعدت أمي أمامي.

***

عاد الزوجان إلى إيتاي البارود وبصحبتهما وديعة غالية وهى رعاية الصبي الكفيف أبن شقيقها مصطفي، سكن الصبي بحجرته صامتاً واجماً لا يعلم ما يخبئه له القدر بعد أن حُرم نعمة عطف ورعاية والده ووالدته وسمع قسوة شقيقته الكبرى عليه، تساءل ماذا أنا فاعل لو تخلصت مني عمتي وألقتني خارج بيتها؟ إلي أين أتجه؟ لا أعلم ولكني سوف أجلس بجوار الحائط أطلب الصدقة كما كنت أسمع البعض أثناء سيري بالشارع برفقة أمي وهي تخبرني عما أسمعه ولا أراه.

***

مضت الأيام وبدا علي الصبي شعوره بحب عمته وزوجها حيث كان الاهتمام به واضحاً ولم يفت ثريا أن تعد له حجرة ذات مستوى لائق به بل ابتاعت له ملابس داخلية وخارجية جديدة وبأعداد تكفيه، أصبح من المألوف أن يصطحب الزوجان يوسف أثناء تجوالهما بالحقول ويستمع لأحاديث عمته وزوجها مع الفلاحين وأثناء هذا التجوال كان المرافق ليوسف أثناء سيره الطفل أحمد الذي كان ينبه يوسف١٢٥إلي ما يقابلهم من عوائق ويوجه إلي

الطريق الصحيح.

نشأت علاقة صداقة بالإضافة إلي علاقة القربي بين كلّ من يوسف وأحمد فتسامرا ولعبا وتحدثا وتناولا طعامهما سويا وبهذا شعر يوسف بأنه يحيا بين أناس يحبونه ولهذا بادل حبهم بحب ووثق بهم مما دفعه إلى الانشراح والسرور والإقبال علي الحياة.

لم ينسي كلّ من نديم وثريا عشقهما للموسيقي العربية خاصة فى أوقات الفراغ حيث يأتي كل واحد منهم حاملا آلته الموسيقية التي يعزف عليها ويقومان بالعزف ليسعدا بسماع تلك المقطوعات الرائعة التي تهز الوجدان وتطرب الآذان.

تعود الطفل أحمد والصبي يوسف على سماع تلك المقطوعات وبدا أنهما يرددان النغمات خلفهما مما دفع بالزوجين للغناء فقام الطفلين بتقليد تلك الأصوات، ظهر واضحا بعد مُضي فترة زمنية أن يوسف يمتلك صوتا ناعما طويل النفس يستطيع مع التدريب المستمر أن يُصبح صاحب صوت غنائي متميز بين المطربين.

أسعد هذا الزوجان وقررا الدفع به للإمام ولهذا إتفق نديم مع أحد مدرسي الأصوات على زيارتهم كل أسبوع يومان مع الإقامة لتدريب يوسف على الغناء وصقل موهبته الموسيقية، مضى أكثر من ستة أشهر وبدا أن الفتي تعلم الكثير ويستطيع أن يخرج أصواتاً وبأنغام من فمه بل ويتغنى بها أمام أحمد مما دفع بعمته وزوجها إلي العزف أثناء غناءه.

في أحد الأيام نظر نديم إلى يوسف وهو يطربهم بصوته الصافي والمعبر وتعجب من الأقدار وسأل نفسه سؤالا محيرا:

أقوم علي تربية أبناء الآخرين ولا أستطيع تربية إبنتى والإشراف عليها وقد بلغ عمرها الآن أربعة وعشرين عاما وأصبحت عروساً رائعة وقد كتبت لها العديد من الخطابات وأرسلتها على عنوان البريدي التي سبق وأبلغتني به شهيرة لكني لم أتلق ردا علي أى منها ولا أعلم السبب؟

صمت قليلاً وطفرت بعض دموع الألم من عينه لفراق إبنته فلم يستطع الاكتفاء بحب أبنه أحمد فهو يهفو إلي أبنته أيضا كما يهفو إلي أحمد، تمنى من الله أن يحقق أمنيته والتى كان يتمناها منذ افتراق زوجته شهيرة عنه بأن يعلم مكان نورهان مع صعوبة رؤيتها فهذا صعب وبعيد المنال.

شعرت ثريا بما يقاسيه نديم فقد تعودت على طباعه فحينما يجلس هادئا ساكنا مركزا نظره بجهة واحدة لا يحيد عنه فهذا يعنى لها أنه يفكر فى ابنته "نورهان". اتجهت إلي الصلاة وهي تدعو الله أن يعثر على أبنته أو أن يحضر له أحدا بخطاب يقلل من لوعة شوقه وفقده لها.

مضي عام على معيشة يوسف فى أحضان عمته ثريا وعماه يتصلان به من حين لآخر مُعربين للزوجين عن شكرهما وسرورهما لما يقومان به، مازال يوسف مهتماً بدراسته بمدرسة متخصصة لمن فى حالته بمدينة دمنهور والتى كان يتجه إليـها بصحبة السائق ويعود به بعد الانتهاء من الدراسة.

نظر نديم إلي ثريا باسما أثناء جلوسهما بمفردهما دون أن يتحدث حيث

كان يوسف بمدرسته وأحمد خطى أول خطوة بقيده بالمدرسة الابتدائي القريبة منهم، تساءلت ثريا عما دفعه لأن يبتسم هكذا وقد دفعها اهتمامها بهذا بأن يضحك بصوت عال فتبعت ضحكاته بمثلها، أمسك بيدها وتوجها إلي داخل الفيلا محاولا إعادة وصلة الحب بينهما والتى خمدت وقل لهيبها لانشغالهما بالطفلين والأرض، جلسا يتمازحان ويتعانقان.

سمعا صوت سيارة توقفت أمام الفيلا ودُهشا بأن يعود يوسف مسرعاً وأمامه ساعتان ثم أعقب هذا سماع صوت ضربات باليد على باب الفيلا الداخلي، أسرعا بالهبوط إلي الدور الأرضي وفتح نديم باب الفيلا ولم يشاهد يوسف أو السائق ولكنه شاهد رجلا غريباً وفتاة رائعة الجمال، وضع السائق حقائب سفر الفتاة أمام الباب مستأذنا فى العودة وأعقبها بسؤال إلى نديم:

. حضرتك تبقى نديم بك مرعي

. أيوه. خير بتسأل ليه؟ أشار إلي الفتاة.

. المزمازيل هيا اللي جاية بتسأل وعايزه نديم بيه مرعى قام الحاج مصطفى الديواني اللي أنت ساكن عنده بالعمارة بعتني أوصلها. السلام عليكم!!

نظر الزوجان إلى الفتاة التي ظلت صامته ودموعها بعيونها ساكنه ثم ألقت بجسدها علي نديم تقبله بين دهشته ودهشة ثريا ولم تزول تلك الدهشة إلا حينما سمع صوتها وهي تقول " باباه"، كان اللقاء عاصفاً عاطفياً مؤثراً على الفتاة التي لم تشاهد أباها ولا تتذكره فى عقلها.

أمسك نديم بيد أبنته "نورهان" وجلسوا ثلاثتهم بالأنتريه تحدثهم بعربية ثقيلة اللسان حيث قالت لهما:

تخرجت من كلية الدراسات الموسيقية تخصص آلات شرقية وأرسلت لأخبر أمى بأن تأتى لزيارتي وتحضر حفل تخرجي أسوة بباقي الزملاء، وبدلاً من المجيء إلي المدينة التي بها الجامعة توجه زوج أمي بها إلي مدينة أخري ليلهو معها كعادتهما وأثناء سفرهما اصطدمت سيارتهما بلوري على الطريق نُقلا بعدها إلي المستشفي ومات الاثنان ولم يحصلا من الحكومة علي أى تعويض نظرا لأنهما كان في حالة من السُكر الشديد، لقد عودها زوجها على تجرع الخمر.

علمت بالحادث وشعرت بأنه من الصعب عليّ البقاء باليونان وقد انتهيت من دراستي الجامعية الصعبة لأننى كنت أعمل وأنفق على نفسي لأبتعد عن المشاجرات المستمرة التى كانت تحدث بين أمى وزوجها باستمرار عملت فى أحد المحلات واستأجرت حجرة مع فتاة سورية وجلسنا نعمل ونذاكر حتى كلل الله مسعانا بالخير ونجحنا.

عُدت إلي مطالعة العنوان الذي عثرت عليه بين طيات الأوراق والصور القديمة التي كانت تحتفظ بها أمي وقرأت العنوان فى بطاقة زواجكما منذ خمسة وعشرين عاما، قررت العودة إلي القاهرة وأن ابحث عنك، كنت أمني نفسي بأن أعثر عليك فأنا في شدة الشوق إلي رؤياك، وصلت إلي مطار القاهرة وأشاهد ما حولي وقد أصبح كل شيء غريبا عليّ فأنا لا أتذكر أي شيء مما أشاهده وما يحيط بي. ١٢٩

طلبت مساعدة أحد رجال الشرطة بأنني أرغب بالتوجه إلي هذا العنوان وأظهرت له دعوة الزواج الخاصة بك وبأمي، إبتسم الرجل وأشار إلي سيارة مكتوب عليها تاكسي، طلب من السائق أن يقلني إلي هذا العنوان وطلب منه ألا يغالي بأجر نقلـي إلي المكان ثم حدثني بلغة إنجليزية واضحة مع إشارة بإصبعه "seven dollar"

سارت بي السيارة حتي وصلت إلي العنوان وأشار لي السائق بأن هذا هو العنوان التي طلبتي مني إيصالك له، هبط من السيارة وأخرج حقائبي ووقف معي محاولا الإستفسار عن المبني الذي أبحث عنه ومن الحظ السعيد إنه شاهد حارس العقار والذي تعرف علي الإسم الذي أستفسر عنه.

مازال كلّ من نديم وثريا يتابعان رواية نورهان مما دفع بثريا إلي النهوض وأشارت إلي نورهان بألا تتحدث حتي تعود، بعد قليل عادت ثريا حاملة مشروبا لنورهان وزوجها ولها، جلست وطلبت من نورهان إستكمال حكايتها.

بعد قليل أقبل رجل قريبا من عمرك يا أبي وإستفسر مني عن الخدمة التي أطلبها، أخبرته بأنني عُدت اليوم من اليونان وأرغب بلقاء أبي نديم رحب بي الرجل وأخبرني بأنك تعيش حاليا بمنطقة أخري وسمعته ينادي علي شخص وعلمت بأنه سائقه الخاص.

طلب منه أن يرافقني إلي العنوان الذي سبق وأعطيته إياه بعد أن رحب بي حينها طلب مني سائق سيارة المطار بأن يعود لعمله حيث إطمأن علي وصولي لما أبغيه ، شكرته وقام الحاج مصطفي صاحب العمارة بدفع أجر السيارة ورفض أن أقوم أنا بدفعها. ١٣٠

أثناء الطريق من القاهرة إلي هنا أشاهد المناظر على الطريق من حولى وخاصة الأراضي الزراعية بلونها الأخضر الجميل كما كنت أشاهد الناس تتحرك وتقود السيارات وتقف وتتحدث، كنت شغوفة بتلك المناظر الخلابة والتي هي من بلدي ووطني والتي سوف أعيش وأحيا به معك يا أبي.

جلست نورهان بجوار والدها والذي أعاد تقبيلها ولكن ثريا طالبته بتأجيل القبلات بعض الوقت حتى تعمل على راحتها فقد تحملت الكثير فى الأيام الأخيرة، في الحجرة التى خصصها الزوجين لاستقبال زائرين توجهت معها ثريا وأعدت لها الحمام وبعدها عادت نورهان وجلست تتناول طعامها وهى تنظر إلي أبيها من حين لآخر.

عادت الفتاة إلي حجرتها وحصلت على قسط من النوم بينما مازال نديم غير مستوعب بأن أبنته قد عادت إليه وهو الذي كان يُمني نفسه بوصول خطاب منها ومن أجل هذا ترك عنوانه لدى الحاج مصطفى مالك العمارة من أجل هذا الغرض، صرخ عاليا.

. أشكرك يارب. صحيح كنت متألم لكن مكنتش شاعر بالسعادة دي، حبيبتي نورهان عادت، سنوات طويلة بعيدة عنى وأنا بعيد عنك، كان نفسي أشوفك وأنت فى المدرسة الإبتدائى والإعدادي والثانوي والجامعة وكل سنة أفرح بنجاحك وكل يوم أودعك وأنت متوجهة للمدرسة وأستقبلك بعد رجوعك وأساعدك فى الواجبات المدرسية وأتنزه معكِ وأشترى لك الهدايا.

ياه نعمة كبيرة لكن الحمد لله أنى شفتها وقبلتها ولمست جسـمها الصغير

كان نفسي أشيلها كأي أب يشيل عياله، ظهرت دموع السعادة بعودة الربيع.

عاد الطفلين من المدرسة وأسعدهما وجود أخت كبرى يلعبان معها وشعرت "نورهان" بان الفيلا بها حركة وحياة والطفلان يحدثانها ويضحكان معها فدفعها هذا إلي المزيد من السعادة، فقد عادت إلي وطنها مصر وإلي حبيبها الأب الذي لا يعوضه حنان ثم هؤلاء الصغار والتى تسعد بمجالستهم ولعبهم وتسمع ضحكاتهم التى تفرح أى إنسان يستمع لتلك الأصوات الرقيقة.

كما شعرت بحنان زوجة والدها فارتبطت بها بقوة كما ارتبطت ثريا بنورهان والتي لم يكن لها شقيقات فعوضها الله بشقيقة تصغرها بعشرة أعوام وأصبح المنزل به أربع صغار كما كان يقول نديم يبدأ بثريا ثم تليها نورهان ثم يوسف وأخيرا أحمد.

جلس أفراد العائلة الكبيرة عصر أحد الأيام يتحدثون ويتناولون الفاكهة تحيط بهم الخضرة من كل جانب والسماء فوقهم بلونها الأزرق الهادي ، طلب نديم من السيدة العاملة بأن تحضر له الأدوات!! لا يعلم بهذا السر سوى زوجته والسيدة العاملة.

بعد قليل حضرت السيدة ومعها شنطة فتحها نديم وأخرج منها آلة الناي وأعطاه الى زوجته بينما أمسك بآلة القانون، قفزت نورهان سعيدة وهى تشاهد آلات موسيقية فطلبت منهما الانتظار لتحضر آلتها بين دهشة الزوجين.

بعد قليل عادت نورهان ومعها "عوداً " للعزف نظروا إليها بدهشة فذكرتهم بأنها تخرجت من قسم ألآلات الشرقية بكلية الموسيقى باليونان وأنها تجيد العزف على الكثير من ألآلات١٣٢الكنها تجيد العزف على آلة العود.

صفقوا لها وأسرعت ثريا إلى الداخل وعادت بعد قليل تحمل النوتة الموسيقية لأشـهر الملحنين المصريين وتخيرت إحداها وسلمتها إلي "نورهان" التي ألقت عليها نظرة سريعة ابتسمت بعدها وبدء ثلاثتهم بالعزف وأصبحت الحديقة ألتي أمام الفيلا زاخرة بجوقة موسيقية صغيرة وأندفع نديم بالغناء بمشاركة يوسف مما أسعدهم جميعا.

هكذا ظللت السعادة علي كلّ من نديم وثريا بعد أن ساورتهما الظنون بأنها فارقتهم ولن تعود أدراجها إليهم ثانية وقد اكتملت سعادتهما بإنجاب أحمد وبانضمام يوسف إلى أحضان العمة ورعايتها وعودة فلذة كبد نديم إليه.

بعد أن عاد الصغار إلي داخل الفيلا توجه كلّ من نديم وثريا بشكرهما إلي الله على نعمته راجين منه أن يحفظها ويزيدها وترحما على الأحباب سواء مصطفى شقيق ثريا الأكبر ووالديها أو سيف زوجها السابق والذى قابل ربه فى ريعان شبابه والأعمال بالنيات ولكل امرأ ما نوى.

لقد كانت نيتهما بيضاء فحصدا ما يستحقان، نهضا وغادرا مكان جلوسهما عائدين الى داخل الفيلا وقد تأبط كلّ منهما ذراع الآخر متلاصقي الأجسـاد تسمع ضحكاتهم ويتردد صداها بين جنيات الحديقة وقد أطل كلّ من "نورهان ويوسف وأحمد" عندما سمعوا تلك الضحكات ومجرد دخولهما من باب الفيلا صفقوا لهما سعداء بدوام الصحة والهناء.

تمت بحـــمد الله

من مؤلفات الكاتب:

* الناس والحـــرب .. الطبعة الثانية مـــايو ٢٠٠٩
* رسالة إلى الرئيس .. الطبعة الثانية يونيـــو ٢٠١٠
* مصر التـــــي .. الطبعة الرابعة يوليـو ٢٠١٣
* نُص نقـــــل .. الطبعة الثانية يولـــيو ٢٠٠٩
* مُسافرٌ زاده الخيال... الطبعة الثانية سبتمبر ٢٠١٢
* حُورية بين النخيل .. الطبعة الثانية سبتمبر ٢٠١٢
* الحب والحرمـــان
* رحلة الألف يوم
* همســـات مصرية
* نور العيون
* صوت المـــلاك
* نسمة على النيل
* بنت الباشا .. الطبعة الثانية يوليو ٢٠١٦
* بُثينـــه
* الرصاصة الأخيرة
* عابد المصـــــرى
* لقاء في الطـــائرة
* العصـفور وأنا
* رجاله ورق للبيـــع .. ملهـــــاة
* فـــهد اللـــيل
* أيام من عمري

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق الرسمية

٢٠١٠/٨٧٣١

ترقيم دولى: 977-17-5834-9